ج
مؤسسة ابن جبرين الخيرية
IbnJabreenFoundation

شرح عقيدة
أهل السنة والجماعة

قدم للمتن

سماحة الشيخ الإمام

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

رحمه الله تعالى

تأليف فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح بن عثيمين

رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين

رحمه الله تعالى



اعتنى به

عبد العزيز بن عبد الله السليم

طبع بإشراف مؤسسة ابن جبرين الخيرية

دار الصميعي للنشر والتوزيع

دار الصميعي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

المركز الرئيسي : الرياض. السويدي. شارع السويدي

ص. ب : ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢

ت: ٤٢٦٢٩٤٥–٤٢٥١٤٥٩

فاكس: ٤٢٤٥٣٤١

فرع القصيم : عنيزة جوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية

ت : ٣٦٢٤٤٢٨

تلفاكس : ٣٦٢١٧٢٨

مدير التسويق : ٠٥٥٥١٦٩٠٥١

daralsomaie@hotmail.com

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ -٢٠١٣م

الصف والإخراج

دار الصميعي للنشر والتوزيع

ح دار الصميعي للنشر والتوزيع ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بن جبرين ، عبدالله بن عبدالرحمن

عقيدة أهل السنة والجماعة . / عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين ، عبدالعزيز بن عبدالله السليم . الرياض، ١٤٣٤هـ

٢٢٠ ص، ٢٤ سم

ردمك : ٦-١٥-٨١٣٣-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الإسلامية أ. السليّم ، عبدالعزيز عبدالله (محقق) .

ب- العنوان

ديوي: ٢٤٠ ٢٦٩٨/ ١٤٣٤

رقم الإيداع : ٢٦٩٨/ ١٤١٣٤

ردمك : ٦-١٥-٨١٣٣-٦٠٣-٩٧٨

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله رب العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُولِ الله ، وعلى آله وصَحْبِه .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فإنَّ مُبْتَدَأَ الرِّسالاتِ النبوية ، والدَّعواتِ الإصلاحية ؛ الدَّعوةُ إلى توحيدِ الله عزَّ وجل ، وبيانُ العقيدةِ الصحيحة، وما يضادُّها من الشركِ والبدعة . فإنَّ الدَّعوةَ إليها ، والبَدَاءَةَ بها، والانتهاءَ إليها ؛ استقامةٌ للشريعة، وزكاةٌ للنفوس ، وتآلفٌ للقلوب ، وعِمارةٌ للأرض ، وقوةٌ في الأخذِ بالدِّين ، وثباتٌ عليه .

ولهذا ؛ لم تزلْ كتبُ السلفِ الصالح ، وخلفِهم من العلماءِ المُصْلحين، حافلةً بالتأكيدِ على هذه القضيةِ الكبرى ، والدعوةِ إليها ، والجهرِ بها، وبيانِ سبيلِها ومِنْهاجِها ، حتى أسفرتْ تلك الصفحاتُ المباركةُ عن صُبْحِ اليقين ، وتجلَّتْ فيها أنوارُ النُّبُوَّة ، وتمخَّض غَرْسُها عن شجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء .

ومن جملةِ تلك الصفحاتِ المباركة، التي تَصِلُ آخرَ الأمةِ بأوَّلِها، وتربِطُ الخلفَ الصالحَ بالسَّلفِ الصالحِ ؛ رسالةٌ مباركة لفَضِيلَةِ الشَّيخ العَلامة محُمَّدِ بنِ صالحِ بنِ عُثَيمين – رحمه الله تعالى وأكرمَ مَثْواه – ألا وهي : « عقيدةُ أهلِ السُّنةِ والجمَاعة » ؛ والتي قَدَّم لها سماحةُ الشيخ الإمام عبدُ العزيز بنُ عبدِ الله بنِ باز – رحمه الله تعالى وأكرمَ مثواه – فقيَّد ثناءَه الكريمَ الميمونَ على طُرَّتِها .

وفي شهر ربيعٍ الآخر من عامٍ ١٤٢٥ قرأتُ هذه الرسالةَ المباركة على فضيلةِ الشيخ العَلَّامة عبدِالله بنِ عبدِ الرحمن بنِ جبرين – رحمه الله تعالى وأكرم مثواه – ، فتفضَّل رحمه الله بشرحِها ، والتَّعليقِ عليها ، وبسْطِ الكلامِ على بعضِ مسائلها. ويسَّر اللهُ عزَّ وَجَلَّ بتوفيقه ؛ إخْرَاجَهَا كَمَا تَرَى .

وقد اقتصر عملي في هذا الكتاب : على إخْراجِ الشَّرح مَقْرُوءاً ، وترتيبِه على مقاطع الكتابِ ، وتنقيحِه ؛ إذْ لا تخفى المغايرةُ بينَ طريقةِ التَّدريسِ والتَّقرير ، وطريقةِ التَّأليف والتَّحرير . وأدْرَجْتُ بعضَ إجَاباتِ الشيخ – رحمه الله – على أسْئلةِ الدَّرس ؛ داخلَ الشرح ، إتمْاماً للفائدة . ثم عَزَوتُ الآياتِ الكريمةَ إلى مواضعِها ، والأقوالَ إلى مصادرِها ، وخَرَّجْتُ الأحَادِيثَ باختصَار.

هذا ؛ وأسألُ اللهَ عزَّ وَجَلَّ أن يُخْلِصَ نياتِنا ، وأنْ يجزيَ مَشَايخنا عنَّا خيرَ الجزاء ؛ كِفاءَ إحْيَائِهم لِعِلْمِ الكتابِ والسُّنَّةِ ، ونظيْرَ أيادِيهم على الناس . اللهمَّ زِدْهُم بركةً إلى البركةِ التي مَعَهم ، واغفرْ للأمواتِ منهم ، ولا تفتنَّا بعدهم ، ولا تحرمنا أجرهم ، وأدخلنا معهم ووالدِينا والمسلمين ؛ في عبادك الصالحين . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

كتبه

عبدُالعزيز بنُ عبدِالله بن عبدالعزيز السّليِّم

٢٢ من رجب ١٤٢٩

ثم راجَعه في ٦ من ذي الحجة ١٤٣٠

شرح عقيدة

أهل السنة والجماعة


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد اطلعت على العقيدة القيمة الموجزة التي جمعها أخونا العلامة فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، وسمعتها كلها ، فألفيتها مشتملة على بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في باب: توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي أبواب: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره .

وقد أجاد في جمعها وأفاد ، وذكر فيها ما يحتاجه طالب العلم وكل مسلم في إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وقد ضمَّ إلى ذلك فوائد جمة تتعلق بالعقيدة قد لا توجد في كثير من الكتب المؤلفة في العقائد. فجزاه الله خيراً وزاده من العلم والهدى ، ونفع بكتابه هذا وبسائر مؤلفاته ، وجعلنا وإياه وسائر إخواننا من الهداة المهتدين ، الداعين إلى الله على بصيرة ، إنه سميع قريب .

قاله ممليه الفقير إلى الله تعالى عبدالعزيز بن عبدالله بن باز سامحه الله .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وإمام المتقين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن الله تعالى أرسل رسولَه محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين وقدوة للعاملين وحجة على العباد أجمعين .

بيَّن به وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة كل ما فيه صلاح العباد واستقامة أحوالهم في دينهم ودنياهم من العقائد الصحيحة والأعمال القويمة والأخلاق الفاضلة والآداب العالية ، فترك ﷺ أُمَّته على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

فسار على ذلك أمَّته الذين استجابوا لله ورسوله ، وهم خيرة الخلق من الصحابة والتابعين والذين اتبعوهم بإحسان ، فقاموا بشريعته وتمسكوا بسنته وعضّوا عليها بالنواجذ عقيدة وعبادة وخلقاً وأدباً، فصاروا هم الطائفة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك .

ونحن - ولله الحمد - على آثارهم سائرون وبسيرتهم المؤيّدة بالكتاب

والسنة مهتدون ، نقول ذلك تحدُّثاً بنعمة الله تعالى وبياناً لما يجب أن يكون عليه كل مؤمن .

ونسأل الله تعالى أن يثبتنا وإخواننا المسلمين بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب .

ولأهمية هذا الموضوع وتفرُّق أهواء الخلق فيه ، أحببت أن أكتب على سبيل الاختصار عقيدتنا ، عقيدة أهل السنة والجماعة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، سائلاً الله تعالى أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه موافقاً لمرضاته نافعاً لعباده.

المؤلف

محمد بن صالح العثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة الشارح

الحمد لله الذي هدانا للإيمان ، ومَنَّ علينا بجزيل الفضل والإحسان ، وتفضَّل على جنس الإنسان ، فأنطق منه اللسان ، وعلَّمه البيان ، نحمده سبحانه أن علَّمنا القرآن، ورضي لنا الإسلام ديناً ، وفضَّله على سائر الأديان، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعالى عن الأنداد والأعوان ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله إلى جميع الإنس والجان ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وسلّم تسليماً .

أما بعد : فإن علم الاعتقاد هو أصل العلوم وأساسها ، وهو الذي برسوخه في القلوب ؛ تُعْمَرُ بقيةُ الأركان ، وتنبعث الأجساد بصالح الأعمال، وتستقيم أحوال العباد ، وتظهر شعائر الإسلام ، وبتحقيق العقيدة السليمة والعمل بموجبها ؛ نَصَر الله المسلمين في صدر هذه الأمة ، ومَكَّن لهم في الأرض ، وأبدلهم بعد الخوف أمناً ، وبعد الفقر غنى ، وبعد الذلِّ عزّاً ، وجمع كلمتهم ، وألَّف بين قلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، ولم يزالوا في ظهورٍ وقوةٍ وتمكُّنٍ وغلبةٍ على الأعداء من جميع الكفار ، في شرق الأرض وغربها .

وقد تفطَّن أعداؤهم إلى أن السبب الوحيد في ظهورهم وانتصارهم ، تمسُّكُهم بكتاب ربِّهم ، وبسنَّة نبيِّهم ﷺ ، ففكَّر أعداءُ الله في حيلة يُذِلُّونهم بها ، ويقف نفوذُهم وامتدادُهم ، فلم يجدوا سوى إبعادهم عن عقيدتهم وإلقاء الشُّبَه والشُّكُوكِ عليهم ، حتى انحرف الكثير منهم ، وانتحلوا بدعاً

وعقائدَ مخالفةً لما كان عليه سلفُهم الصالح ، فبعد ذلك تفرَّقوا نِحَلاً وأحزاباً وشيعاً ، كلٌّ حزبٍ بما لديهم فرحون . فكلُّ فرقةٍ تدَّعي الصواب في جانبها ، وتعيبُ على غيرها ، فنجحتْ حيلةُ الأعداء ، حيث ضعف أهل الإسلام ، وتفرَّقت كلمتُهم ، فتمكَّن الكفار من الاستيلاء على القلوب والأبدان ، واستولوا على الكثير من بلاد المسلمين ، ولحق فئامٌ من الأُمَّةِ بالكفار ، وخالوهم أهل التقدُّم والرُّقي ، واعتقدوا الصواب في غير عقيدة المسلمين .

ولكنَّ الله سبحانه لن يضيِّع دينَه ، ولن يخذِلَ أولياءَه ، فقد أبقى في الأمة من يُجدِّدُ لها دينها ، ويحفظ إسلامها عن كيد الكائدين وعبث العابثين ، ومنهم بفضل الله صاحبُ هذه العقيدة ، وهو شيخنا العلَّامة محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله تعالى وأكرم مثواه ، الذي كتب في هذه العقيدة ما يجب تعلُّمه على الأفراد والجماعات من المسلمين ، ولخَّصها من عقائد أهل السنة المتقدمين والمتأخِّرين ، وقد سبق أن قمت بشرحها في إحدى الدورات في الرياض ، وسُجِّل الشرح ثم فرَّغه أحد الطلاب ، وصحَّحه وهذَّبه ، فظهر في هذا الكتاب .

نسأل الله أن يجزي المؤلف خير الجزاء ، وأن ينفع بعلمه ، وأن يتغمده برحمته، ويدخله فسيح جنته ووالديه ووالدينا وجميع أهل السنة والجماعة، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين

٢/ ٣/ ١٤٢٦هـ

تمهيـــد

الحمـــد لله رب العـــالمين ، وصـــلى الله وســـلم عـــلى أشرف الأنبيـــاء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن العقيدة تُطلق على ما يعقد القلبُ عليه عقداً مُبْرماً محكـماً ، لا يزعزعها شك أو ريب ؛ ترسخ في القلب رسوخَ الجبال في الأرض .

يعتمـدها أهـل الـسنة عقيـدةً سـليمة ، ويعتقـدها ويعتمـدها كـذلك أهـلُ البدعةِ عقيدةً راسخة ثابتة عندهم . وكلٌّ منهم عنده ما يثبِّتُ هذه العقيـدة لـه، ويجعله يطمئن إلى ما يقال فيها.

إلا أنَّ أهل السنَّة يمتازون بتثبيت الله لهم : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فعقيدة أهل السنة والجماعة مأخوذة عن القرآن ، وعن الأحاديث النبوية الصحيحة ، واعتمدها الصحابة والتابعون ، وأئمة الهدى المقتدى بهم .

ومنهم الأئمة الأربعة : مالك وأبوحنيفة والشافعي وأحمد ، وأهل زمانهم من أئمة الدنيا .

ففي العراق : سفيان الثوري ، وفي الشام : أبو عمرو الأوزاعي ، وفي مصر : الليث بن سعد ، وفي المدينة : مالك بن أنس ، وفي مكة : سفيان بن

عيينة ، وغيرهم مِمَّنْ في زمانهم ومِمَّنْ بعدَهم .

وهؤلاء لم يُنْقل عنهم ما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة ، فاعتمدوا العقيدة الصحيحة واعتمدها أتباعهم .

وأما المبتدعة فإنهم لم يعتمدوا أدلة نقلية ؛ كالآيات والأحاديث ، وإنما اعتمدوا في عقيدتهم أموراً عقلية يحسبونها قوية ثابتة ، ولكن عند التحقيق والتدقيق ؛ تظهر عقيدة فاسدة ، وتضمحلُّ شبهاتُهم التي يتشبَّثون بها ، ويُبْطِلُ بعضُها بعضَاً .

فشبهاتُ هؤلاءِ ينقضُها هؤلاء ، فالمعتزلةُ يعارضون أدلَّةَ الأشاعرة ، والأشاعرة كذلك يناقضون أدلةَ المعتزلة ، وكذلك الجبرية والمرجئة والوعيدية ونحوهم ، فأدلةُ هذه الفِرَقِ كلِّها ؛ يُبْطِلُ بعضُها بعضَاً .

ولهذا يُنْشِدُ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في آخر الحموية[1] :

حُجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكلٌّ كاسرٌ مكسور

فمثَّل حُجَجَهم بالزجاج ، فإذا كانت في يديك زجاجتان ، وضربت إحداهما بالأخرى ؛ انكسرتا ، فهكذا شبهات هؤلاء المبتدعة .

وقد ضرب ابن القيم رحمه الله لهم مثلاً ، بأبيات ذكرها في الصواعق

---

(١) (ص/ ٥٥٥) .

وذكره شيخ الإسلام أيضاً في درء التعارض (٧/ ٣١٤) ، وبيان تلبيس الجهمية (٢/ ٢٥٣) ، وعزاه في الفتاوى (٤/ ٢٨) إلى الخطابي .

المرسلة[1] ، يقول فيها :

واضرب لهم مثلاً بعميان خلوا ... في ظلمة لا يهتدون سبيلاً
فتصادموا بأكفهم وعصيِّهم ... ضرباً يدير رحا القتال طويلاً
حتى إذا ملوا القتال رأيتهم ... مشجوجاً أو مفجوجاً أو مقتولاً
وتسامع العميان حتى أقبلوا ... للصلح فازداد الصياح عويلاً

فمثَّلهم رحمه الله بهؤلاء المكفوفين ، الذين يصطدم بعضهم ببعض .

ولما رأى هؤلاء المبتدعة قوةَ الأدلة عند أهل السنة ؛ احتالوا في ردِّها فقالوا : الآيات القرآنية نُسلِّط عليها التأويل، وهذا في الحقيقة هو ما فعله اليهود ، يقول الله عز وجل : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء :٤٦] فتأويلهم هذا تحريف، وهذا هو موقفهم من الآيات .

أما الأحاديث فإنهم رَدُّوها ، وقالوا : إنها أخبار آحاد لا تفيد إلا الظن ، والعقيدة لابد لها من اليقين .

فهكذا تسلَّطوا على الآيات بالتحريف ، وعلى الأحاديث بردِّها على أنها آحاد .

ولأن علماء السلف الأولين في عهد الأئمة ، كالإمام أحمد والشافعي ونحوهما لم يبتلوا بهؤلاء ، ولا كَثُر في زمانهم هؤلاء المحرفون ؛ فإنهم

---

(١) (٣/ ٩٨١) .

اقتصروا على تأليف كتب العقيدة وذِكْر الأدلة فيها ، ووجدُوا لبعض المبتدعة شيئاً من الكتب ؛ فناقشوها .

فالإمام أحمد في رسالته التي ردَّ فيها على الزنادقة فيما شكَّت فيه من متشابه القرآن ؛ ناقش بعض أدلتهم .

والإمام عثمان بن سعيد الدارمي ، وجد كتاباً لحنفي معتزلي يقال له ابن الثلجي، وسماه : « عقيدة بشر المريسي »، فردَّ عليه الإمام الدارمي في كتابه: « ردُّ الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد » ، وله كتاب آخر في الرد على الجهمية ، استوفى فيه الأدلة التي تبطل عقيدتهم.

ولمَّا كان في القرن الرابع ؛ قويتْ شوكةُ المعتزلة ، وشوكةُ مَنْ تسمى بالأشاعرة والكرَّامية والكُلاَّبية ونحوهم ، ولم يكن هناك مِنْ أهل السنة مَنْ يتصدَّى لهم ، ولا مَنْ يناقشهم ويرد عليهم ؛ فأصبح أهل السنة قلة ، وهم الذين على معتقد السلف ، وعلى معتقد الأئمة ، كالإمام أحمد بن حنبل وغيره، ومن بين أولئك القلة : الإمام البربهاري، فقد طُورد في عهده من المعتزلة والأشاعرة ، وحذَّروا منه ، وكادوا أن يرجموه ويقتلوه ، ولكنَّ الله تعالى أنجاه ، وألَّف رسالته المشهورة التي سماها : «شرح السنة» ، منَّ الله بوجودها بين أهل السنة .

ولم يزل أهل السنة يستخفون حتى أصبحوا شِبْهَ أفراد ، ولم يزل مذهب الأشاعرة يتمكن شرقاً وغرباً ولا أحد يناقشهم ، حتى قَيَّضَ اللهُ شيخَ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - ففضحهم وفنَّد أدلتَهم وشبهاتِهم، ومنَّ الله بكتبه،

وبقيت بأيدي محبيه إلى أن وصلت إلى هذا الزمان ، وطبعت وانتشرت .

وفي زمانه قام أهل البدع عليه ، وضَلَّلُوه في دمشق ، ثم في مصر، وكذلك أيضاً قام عليه مَنْ بعده مِنْ الذين تأثروا بتلك العقائد المنحرفة ، كالأشعرية ونحوهم ، ولا يزالون إلى اليوم يبدِّعونه ، ويضلِّلونه ، ويحذِّرون من كتبه ، ويسمُّونه : الضال المضل .

ولكنَّ اللهَ تعالى وفَّق مَنْ نَشَرَ كُتبَه ، وأظهر معتقده ، حتى أصبح الحقُّ أبلجَ ظاهراً ، لا يضرُّه نُبَاحُ هؤلاء ولا نهيقُهم .

وإذا كان الأمرُ كذلك ؛ فإن علينا أن نرجع إلى كتب السلف ، الذين نشؤوا وألَّفوا هذه الكتب ؛ في عهد قوة السنة وأهلها ونقرأ مؤلفاتهم ونعتمدها .

ومن مؤلفاتهم : المؤلفات المختصَرة ، والمقتصِرة على رؤوس المسائل دون ذكر الأدلة ، ومن ذلك رسالتان للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : الأولى اسمها : « أصول السنة » ، وقد شرحتُها في المنطقة الشرقية ، وطُبِعَتْ مع الشرح ، ولكنَّ الشرح مختصر .

والرسالة الثانية اسمها : « رسالة السنة » مختصرة أيضاً ، وأصلها موجود في المجلد الأول من طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى[1] وقد طبعت مفردة ، وإن كان بين النسختين شيء من التفاوت .

---

(١) (١/ ٥٥).

وأما الذين بسطوا وتوسعوا ، فهم الذين يذكرون الأدلة ، وقد يوجِّهونها ويبيِّنون دلالتها .

فمنهم الإمام اللالكائي في كتابه المشهور : « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » ، في سَبْعِ مُجَلَّداتٍ أو نحوها ، وهذا من أوسع ما أُلِّف في عقيدة أهل السنة .

كذلك الآجُرِّي في كتابه « الشريعة » ، طبع قبل نحو خمسٍ وخمسين سنة على نفقة الأمير منصور بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن رحمه الله ، ولكن الكتاب طبع ناقصاً وقد كان في مجلد واحد . ثم يسر الله من حققه وطبعه كاملاً في خَمْسِ مُجلَّدات أو نحوها .

كذلك أيضاً ابن بطة له كتابان ؛ الأول : الإبانة الصغرى ، وهي مختصرة لم يذكر فيها الأسانيد .

والثاني : الإبانة الكبرى ، يعتمد على الأسانيد ، ويروي الأحاديث والآثار بأسانيدها إلى الأئمة ، وكلاهما مطبوع .

وهناك من ألَّف في السنة كابن أبي عاصم ، وإنْ لم يستوفِ ما استوفاه غيرُه ، ولكنه يذكر الأحاديث بأسانيدها .

فهؤلاء وغيرهم عمدةٌ في العقيدة ، ولا عبرةَ بمن طعن فيهم .

وقد رأيتُ رسالةً لبعض الإباضية - وعقيدتهم معتزلة - ينكرون رؤية الله في الآخرة ، ويقولون : إن القرآن مخلوق . ويقولون : إن العباد هم الذين

يفعلون ، والله تعالى لا يقدر على أفعال العباد ، وهذه هي عقيدة المعتزلة .

ووجدتُ صاحبَ هذه الرسالة يطعن في ابن بطة رحمه الله ، ويرميه بالجهل والكذب .

وبكلِّ حال ؛ فإنَّا نقول : إنَّه لا يَنْقُصُ من قدر هؤلاء الأئمة ؛ أنكم - أيها الإباضية وأيها المعتزلة - تقدحون في أئمةٍ اعتُرف بفضلهم وإمامتهم وبحفظهم .

ولمَّا ألَّف القاضي أبو يعلى الحنبليُّ رسالةً في إثباتِ العلوِّ لله تعالى وكان زمانه زمان بدع ؛ صاح عليه أهل زمانه ؛ يقولون : أبو يعلى مجسِّم، أبويعلى مشبِّه ، أبو يعلى مبتدع ... فقال لهم : ما أتيت بشيء من قِبَل نفسي ، أنا حنبلي وقد نقلت مذهب أئمتنا .

وله كتاب مطبوع في إثبات الصفات ، ونفي التأويلات ، واسمه : «إبطال التأويلات» .

وكذلك الإمام ابن قدامة رحمه الله ، ألَّف رسالة في العقيدة ، وهي: «لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد »، ولما كان ابن قدامة مشتغلاً بالفقه ؛ لم يُنْكِر عليه أهل زمانه؛ إذْ لم تشتهر رسالتُه ، وإلا فإن أهل زمانه ينكرونها، وهو مع ذلك يداري أهل زمانه، ولأجل هذا اقتصر على الأدلة ولم يصرِّح بدلالتها.

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فإنه صرَّح وأوضح دلالة الأدلة وقال بموجبها ؛ فلذلك صاحوا عليه وخافوا أن يفسد عليهم عقيدتهم أمام الناس ؛ لأن الناس يحترمونه لمكانته ويعجبون من مقاماته ، فإن له مقامات

مذكورة في ترجمته ، ويعترف بها عدوه قبل صديقه ، وقد تأثر به تلاميذه ، حتى وإنْ لم يكونوا حنابلة ، فابن كثير رحمه الله كان شافعياً وقد تأثر به ، والذهبي رحمه الله كان شافعياً أيضاً وقد تأثر به ، وألف كتابه الذي سماه «العلو للعلي الغفار» .

فعلى هذا نقول : إن مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عمدة في العقيدة ، فمنها مختصر كالواسطية ، ومتوسط كالحموية والتدمرية ، ومنها ما هو موسَّع ، كردِّه على الرازي الذي سماه : « نقض التأسيس » ، فالرازي كان أشعرياً ، وله كتاب مشهور اسمه : « تأسيس التقديس » ، فنقضه شيخ الإسلام رحمه الله ورد عليه في هذا الكتاب.

وله أيضاً كتابُه الموسَّع الذي سماه : «درء تعارض العقل والنقل»، والذي مدحه ابن القيم في النونية[1] بقوله :

واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ... ما في الوجود له نظير ثانِ

وله رحمه الله رسائل كثيرة طبعت ضمنَ مجموعِ الفتاوى ، الذي جمعه الشيخ عبدالرحمن بن قاسم رحمه الله .

فجعل المجلد الثالث في العقائد المجملة، والرابع في العقائد المفصلة، والخامس والسادس في الصفات، والسابع في الإيمان ، والثامن في القدر، والتاسع في المنطق ، والعاشر في السلوك ، والحادي عشر في التصوف ،

(١) (ص/ ١٩٧) : فصلٌ في مصارع النفاة والمعطِّلين بأسنَّة أمراءِ الإثبات الموحِّدين .

وانظر : طريق الهجرتين (١/ ٣٢٨ ، ٢/ ٥١٨) .

وكلها تتعلق بالعقائد .

ثم إن مشايخ هذه البلاد ـ والحمد لله ـ نشؤوا على هذه العقيدة ، وألَّفوا فيهـا كتباً ورسائـل ، منهم الشيخ محمد بن صالح العثيـمين رحمه الله تعالى وأكرم مثواه ، فقد كتب هذه الرسالة، وقد ذكروا أنه ألفها في سنة ألْفٍ وأربعمائة وأربع، والذي يظهرُ ؛ أنَّ تلك السنة ؛ هي السنة التي طُبعتْ فيها الرسالة ، وكَتَبَ فيها رحمه الله خاتمتَها ، لأننا نتذكر أنه عرضها علينا رحمه الله في حدود سنة أربع وتسعين ، ويمكن أنها في ذلك الوقت لم تطبع بعد ، وحيث إنها واضحة الأدلة ؛ فإنَّا لا نتوسَّع في شرحها .



« عقيدتنا »

أضاف الشيخ - رحمه الله - هذه العقيدة إلى أهل السنة في قوله : «عقيدتنا» .

يريد بذلك أهل السنة والجماعة ، الذين هم أتباع السَّلف الصَّالح والأئمة الأربعة ، وكذلك منْ جاء بعدهم مِمَّنْ هم على هذا المعتقد .

وقد ذَكَرَ شيخُ الإسلام أنه لما ناقشه أهل زمانه في دمشق عند السلطان وصاروا ينكرون عليه ؛ قال السلطان يريد أن يسكتهم : إن هذا حنبلي وأنتم شافعية ، والحنبلي مذهبه معتمد ، ومعتقده معتمد ، فاتركوه على عقيدة إمامه ، وأنتم على عقيدة إمامكم .

فقال ابن تيمية رحمه الله : معاذ الله أن تكون عقيدة أحمد وحده ، بل إنها عقيدة الأئمة الأربعة وعقيدة السلف الصالح[1] ، وأنا أتحداهم أن يأتوا بنقل صحيح عن إمام من الأئمة في إثبات ما يقولونه من هذا التحريف ، ولكنَّها عقيدة ابن كلاَّب وعقيدة ابن كرَّام ، وقد تكون أيضاً عقيدة الجبَّائي وعقيدة ابن فورك ونحوهم من المتأخرين .

فهذا سبب قول المؤلف رحمه الله : « عقيدتنا » .

---

(١) انظر حكاية شيخ الإسلام عن نفسه وما جرى له في تلك المجالس من مناظرات على سبيل التفصيل في الفتاوى : (٣/ ١٦٠ وما بعدها)، ونقلها عنه ابن عبد الهادي في «العقود الدريَّة» : (ص / ٢٠٦ وما بعدها) . وكان مما قاله شيخ الإسلام رحمه الله : « فقلت ما جمعت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ... وهذه عقيدة محمد ﷺ » .

«عقيدتنا : الإيمان بالله، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره .

فنؤمن بربوبية الله تعالى : أي بأنه الرب الخالق الملك المدبِّر لجميع الأمور ».

ذكر بعد ذلك أصول الإيمان الستة الواردة في حديث جبريل المشهور لما قال: أخبرني عن الإيمان . قال ﷺ : **« أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »** [1] .

فعقيدة أهل السنة تدور حول هذه الأركان الستة ، إلا أنهم يضيفون إليها إضافاتٍ ؛ فيجعلون تَبَعَ الإيمان بالرسلِ مثلاً الإيمان بمحمد ﷺ ، والإيمان بفضل صحابته رضوان الله عليهم رداً على مَنْ يطعن فيهم .

وكذلك توسعوا فيما يتعلق بالإيمان بالله تعالى .

فيذكر الشيخُ ـ رحمه الله ـ هنا أن مِنَ الإيمانِ بالله ؛ الإيمانَ بربوبية الله ، **«أي بأنه الرب الخالق الملك المدبر لجميع الأمور»** ، ويسمى هذا توحيد الربوبية ، وهو الإقرار بأن الله هو رب العالمين .

والربُّ له معنيان : المالك ، وكذلك المربي .

فالله تعالى هو المالك فهو سبحانه رب العالمين أي : مالكهم .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الإيمان والإسلام والإحسان (٨) .

وهو سبحانه المربِّي ؛ الذي ربَّى جميع العالمين بنعمته ، وهو الرب المالك ، وهو الخالق المتفرد بالخلق ، وهو مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، وهو المدبر لجميع الأمور .

وتوحيد الربوبية هو الذي اعترف به المشركون الأولون ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف :٨٧] ، فهم يعترفون بأن الله هو الخالق ، وهذا حجَّةٌ عليهم ؛ لأنهم إذا كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق ، فإنه يقال لهم : إذا كان هو الخالق ؛ فإنه سبحانه المعبود الذي لا يستحق العبادة غيره.

* * *

« ونؤمن بألوهية الله تعالى : أي بأنه الإله الحق، وكل معبود سواه باطل » .

الله عز وجل هو الإله ، بمعنى : أنه سبحانه هو المألُوه الذي تَأْلَهُهُ القلوب مودةً و محبة وإخلاصاً وديانة ، فهو الإله الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه ، وكل معبود ومألوه فإنه باطل إلا الله .

* * *

« ونؤمن بأسمائه وصفاته: أي بأنه له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا » .

كذلك نؤمن بأسمائه وصفاته ، وأن له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، وهذه هي أقسام التوحيد الثلاثة : الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .

فالخلاف في الربوبية مع الدَّهْرِيِّين والشُّيُوعيِّين ، والخلاف في الألوهية مع القُبوريِّين والمشركين . والخلاف في الأسماء والصفات مع المعطِّلة من الجهمية ونحوهم .

* * *

«ونؤمن بوحدانيته في ذلك : أي بأنه لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته ، قال الله تعالى : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ » [مريم :٦٥] .

فصَّل رحمه الله بعد ذلك بقوله : «**ونؤمن بوحدانيته في ذلك**» ، والإشارة في قوله : « **في ذلك** » ؛ أي : إلى وحدانيته في الأنواع الثلاثة : وحدانيته في الربوبية ، ووحدانيته في الألوهية، ووحدانيته في الأسماء والصفات .

ثم قال رحمه الله : « **لا شريك له في ربوبيته** » أي : ليس مع الله خالق آخر ، « **ولا في ألوهيته** » أي : لا إله غيره ، « **ولا في أسمائه وصفاته** » أي : لا شبيه له في الصفات ، ولا يستحق أحدٌ ما يستحقه من الأسماء، ثم استدلَّ رحمه الله بقوله تعالى : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] .

فقوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ هذا توحيد الربوبية ، ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ وهذا توحيد الألوهية ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ أي: هل تعلم سمياً يستحق اسماً من أسمائه ؟ وهذا توحيد الأسماء والصفات.

* * *

« ونؤمن بأنه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة :٢٥٥] ».

استدل رحمه الله أيضاً بآية الكرسي ، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هذه الجملة الأولى ، وفيها إثبات الألوهية .

الجملة الثانية : ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وفيها إثبات صفة الحياة والقيومية لله عز وجل. قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان :٥٨]، ومعنى القيوم: القائم على أرزاق العباد.

الجملة الثالثة: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، وذلك لكمال حياته وقيوميّته، والسِّنَة : النعاس ، والنوم معروف ، وفي الحديث : **« إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام »**[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب قوله عليه السلام : « إن الله لا ينام » وفي قوله : «حجابه النور» (١٧٩) .

الجملة الرابعة : ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي : هو المالك لجميع ما في السماوات من الملائكة والأرواح والمخلوقات ، و ما في الأرض من إنسان ودواب وشجر وغيرها ، فالجميع خلقه ومُلكه وعبيده ؛ يتصرَّف فيهم كما يشاء بما يريد .

الجملة الخامسة : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ ، والشفاعة تعني الوساطة ؛ وذلك لأن المشركين يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم ، وأنها وسائط بينهم وبين الله ، فبَيَّن الله أنه لا يشفع أحدٌ إلا بإذنه.

الجملة السادسة : ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ فيها إثبات العلم . فقوله : ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي : قبل أن يوجدوا ، ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي : بعد أن يموتوا . وقد يكون المعنى : ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي : ما أمامهم ، ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي : ما وراء ظهورهم ، فهو سبحانه يعلم كل شيء .

الجملة السابعة : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ، لا يطَّلِعُ أحدٌ على علمِه عزَّ وجل ؛ إلا من أطْلَعَه الله عليه ، إذا شاء سبحانه ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ أي : لا يقدرون على أن يصلوا إلى شيء من علمه سبحانه الذي أخفاه عنهم ؛ إلا بما أطلعهم عليه .

الجملة الثامنة : ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ قيل : إن الكرسي كالمِرْقَاة بين يدي العرش ، وقيل : إنه العرش، وقيل : إنه موضع القدمين[1]، ومع ذلك فهذا الكرسي يتَّسع للسماوات والأرض كلها ، ففي

---

(١) رواه عبدُالله ابنُ الإمام أحمد في السنة (١/ ٣٠١) برقم (٥٨٦)، ورواه الحاكم في مستدركه =

حديثٍ ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في آخر كتاب التوحيد: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أُلقيت في ترس**»[1] . والتُّرس : هو المِجَنُّ الذي يُلبس على الرأس .

الجملة التاسعة : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي : لا يكلِّفه ولا يشقُّ عليه أمر المخلوقات كلها، ولا يُكْرِثُه ولا يُثقله حِفْظُها، فإنه سبحانه على كل شيء قدير.

الجملة العاشرة : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، فيها إثبات صفة العلو بجميع أنواعه : علو القدر ، وعلو القهر ، وعلو الذات[2] .

وفيها كذلك إثبات العظمة ، وأنه سبحانه أعظم من كل شيء .

* * *

« ونؤمن بأنه ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ

= (٢/ ٢٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٢٣) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وذكر ابنُ كثير في البداية والنهاية (١/ ٢٣) أن الأثر محفوظ عن ابن عباس رضي الله عنهما . وانظر : تفسير الطبري (٤/ ٥٣٨) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٠٤) .

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٩) ، وأبوالشيخ في العظمة (٣١) من حديث زيد بن أسلم عن أبي ذر دون لفظة «والأرضون السبع» ، وفي إسناده عبدالرحمن بن زيد بن أسلم . قال الحافظ في « التقريب » (ص٣٤٠) : « ضعيف » . وقال الشيخ ابن جبرين – رحمه الله – في شرحه على كتاب التوحيد (٢/ ٥٦٩) : « الحديث مرسل ولكن له شواهد » . وانظر: لسان الميزان (٥/ ٢٣٢) .

(٢) يأتي لذلك تفصيلٌ في (ص/ ٤٨) .

ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ » [الحشر :٢٢-٢٤] .

ذكر رحمه الله بعد ذلك آخر سورة الحشر ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ ﴾ ، أثبت سبحانه اسمه عز وجل ، وأنه الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه، وأكَّد أنه لا إله غيره ، وأنه هو الإله الحق.

وأثبت سبحانه أنه عالمٌ بكلِّ شيء ، فقال : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ﴾.

والغيب هو ما غاب عن الناس ، والشهادة هو ما شَهِدُوه ونظروا إليه.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ : اسمان رقيقان، أحدهما أرقُّ من الآخر، دالَّان على إثبات صفة الرحمة .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وهذه الآية أيضاً تأكيدٌ وإثباتٌ لألوهية الله وحده .

ثم ذكر سبحانه في هذه الآية ثمانية أسماء :

﴿ٱلْمَلِكُ ﴾ أي : الذي له الملك وحده ، فله الملك الحقيقي : ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك :١] .

﴿ٱلْقُدُّوسُ ﴾ أي : المقدَّس والمنزَّه عن النقائص ونحوها .

﴿ٱلسَّلَـٰمُ ﴾ قيل : معناه السَّالم من النقائص ، وقيل : المسلِّم لعباده .

﴿ ٱلۡمُؤۡمِنُ ﴾ وهو من التصديق . أي : المصدِّق لعباده الصادقين .

﴿ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ﴾ أي : المُطَّلِعُ على العباد والرقيب عليهم ، والشاهد على خلقه . وهَيْمَنَ عليهم أي : جعلهم في قبضته وتحت تصرفه وتقديره.

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة الكاملة .

﴿ٱلۡجَبَّارُ ﴾ الذي له الجبروت كله .

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ ﴾ أي : الذي له الكبرياء ، كما قال تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [الجاثية :٣٧] .

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ والتسبيح هو التنزيه .

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ أي : عما يجعلون معه من الشركاء .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ﴾ أي: الذي خلق الخلق وحده سبحانه وأوجدهم من عدم.

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ الذي بَرَأَهُم ، أي : ابتدأ خلقهم .

﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ الذي صوَّرهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾ [غافر :٦٤ ، التغابن :٣] .

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ أي : إن الله عز وجل يتسمَّى بجميع الأسماء الحسنى ، وكلُّ اسمٍ من أسماء الله ؛ دليلٌ على ذاتِ الله تعالى ، ودليلٌ كذلك على الصفة التي اشْتُقَّ منها ، ودليلٌ على بقية الصفات .

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي : يسبحون الله تعالى تسبيحاً حسياً أو تسبيحاً معنوياً .

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي : إن من صفاته عز وجل أنه الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها ، فهو سبحانه أحكم الحاكمين .

* * *

« ونؤمن بأن له مُلْك السماوات والأرض ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ [الشورى : ٤٩-٥٠]».

قال تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، هكذا صرَّح الله بها في كثيرٍ من الآيات ، فإن السماوات وما فيها والأرضين هي ملكٌ لله سبحانه، يتصرَّف فيها كما يشاء .

ثم قال سبحانه وتعالى في تتمَّة هذه الآية : ﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ أي : إن ما يشاؤه سبحانه ؛ يُوجِدُه ويَخْلُقُه ولا يُعْجِزُه شيء ، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ أي : يجعل أولاده إناثاً ، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فيكون أولاده ذكوراً، ﴿ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ﴾ أي : يجعلهم من الجنسين ؛ ذكوراً وإناثاً ، ﴿ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ أي : لا يولد له .

فقسَّم اللهُ الناسَ في هذه الآية ـ بالنسبة للأولاد ـ إلى أربعة أقسام : منهم

مَنْ أولادُه إناث ، ومنهم مَنْ أولادُه ذكور ، ومنهم مَنْ له ذكور وإناث ، ومنهم مَنْ لا يُولد له .

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه عليم بكل شيء ، قدير على كل شيء ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

* * *

« ونـؤمن بأنـه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى :١١-١٢] » .

قـال الله عـز وجـل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، هـذه بعـضُ آيةٍ مـن سورة الـشورى ، وفيهـا : ردٌّ عـلى الطـائفتين ؛ ردٌّ عـلى المـشبِّهة الـذين يـشبِّهون الله بـصفات خَلْقِـه ؛ فنـزَّه الله نفـسه بقولـه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ .

وردٌّ على المعتزلة الذين ينفون الصفات ، فأثبت الله لنفسه أنه سميعٌ بصير ، فقال عز وجل : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فأخبر الله تعالى بأنه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

والمعطِّلة دائماً يأتون بأوَّلِ الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ويسكتون

عن آخرها ؛ لأن آخِرَها ردٌّ عليهم ، حتى ذكروا [1] أن ابن أبي دؤاد المعتزلي طلب من الخليفة المأمون أن يكتب على كسوة الكعبة : « ليس كمثله شيء وهو اللطيف الخبير » ، يريد بذلك أن لا تدل الآية على السمع والبصر.

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، ومقاليدها أي: كل ما يُتَصرَّفُ به فيها ، فشَبَّهها الله بالقلائد ، كالبعير إذا كان له قلادة أو ربطوا في عنقه حبلاً ؛ فإنه ينقاد للإنسان ؛ فكأن هذه السماوات والأرض لها قلائد يتصرف فيها الخالق سبحانه كيف يشاء.

﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يُوَسِّعُ الرزق على هؤلاء فيعطيهم أنواع الرزق ، ويَقْدِرُ على هؤلاء ويضيِّق عليهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر :١٥-١٦] .

﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيه إثبات صفة العلم لله تعالى .

* * *

« ونؤمن بأنه ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود :٦] » .

يُطلق لفظ « الدابة » على كل ما يدبُّ على الأرض ، وعلى كل ما يمشي

---

(١) انظر : طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/ ٣٨٦) و تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٤٩٣) في حوادث سنة إحدى وعشرين ومائتين .

عليها من الحيوانات ؛ صغيرِها وكبيرِها .

ويدخل في ذلك الطيور ؛ لأنها تقع على الأرض وتمشي ، وكذلك الحشرات وكل الحيوانات المتحركة .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي : إن الله تعالى هو الذي يرزقها ، وقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٠] .

فكثير من الدواب لا تحمل رزقها ، ومع ذلك يُيَسِّرُ الله تعالى لها رزقاً .

قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ ، وقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام :٩٨].

تكلَّم العلماء في قوله تعالى : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ ، وأوْرَدُوا في ذلك أقوالاً ؛ كما في تفسير ابن جرير[١] وغيره ، فمنهم من يقول : المستقرُّ في الأرض ، والمستودع في الأصلاب أو في الأرحام .

ومنهم من يقول : المستودع في القبر ، والمستقرُّ في الآخرة ، والله تعالى أعلم بمستقرِّها ومستودعها .

وقوله تعالى : ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : إنه سبحانه وتعالى قد كتب

---

(١) (٩/ ٤٣٣ وما بعدها).

ذلك في أم الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، وهذه الآية دليل على سعة علمه سبحانه وتعالى.

* * *

« ونؤمن بأنه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ » [الأنعام :٥٩] .

ذكر الشيخُ بعد ذلك آيةَ الأنعام ، وهي قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ ، ومفاتح الغيب هي الخمسة التي ذُكِرَتْ في آخر سورة لقمان[1] ، ومفاتيح الغيب : عند الله تعالى ، لا يعلمها إلا هو سبحانه ، أو يُطْلِعُ عليها مِنْ خلقه مَنْ يشاء ، قال الله تعالى في سورة الجن : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن ٢٦- ٢٧] .

فالأصل أن العلوم الغيبية لا يعلمها إلا الله ، كما في قوله تعالى : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل :٦٥] ، وقال الله تعالى

---

(١) أخرجَ البخاريُّ في صحيحه في تفسير سورة الأنعام : باب ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ (٤٦٢٧) عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ » .

للنبي ﷺ : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف :١٨٨] فهو ﷺ لا يعلم الغيب.

وقوله تعالى : ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ أي : جميع ما في البر من الحوادث ، ومن المخلوقات ، ومن الحبَّات ، ومن الذرَّات ، ومن عدد الصخور ، وعدد حبات الرمل ، وما في البحر من الحيوانات الصغيرة والكبيرة ؛ يعلمها سبحانه ويقوم برزقها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ أي : إن أوراق الشجر لا يحصيها إلا الله ، وكذلك أيُّ ورقةٍ تسقط ؛ فإن الله يعلم متى تسقط ومتى يَنْبُتُ بدلها .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ، كحبَّة بُرٍّ مثلاً أو حبة تراب في ظلمات الأرض ؛ فإن الله سبحانه وتعالى يعلمها .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾؛ لأن المخلوقات إما رطب وإما يابس، فالمخلوقات المتحركة ما دامت حية فإنها رطبة ، وبعد موتها تكون يابسة .

وكذلك الأشجار ؛ ما دامتْ نامية وخضراء فإنها رطبة ، وإذا قُطِعَتْ أو سقطتْ أوراقُها تصبح يابسة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي: في كتاب محفوظ ، قد أودعها سبحانه في ذلك الكتاب .

* * *

« ونؤمن بأن الله ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ » [لقمان :٣٤] .

ذكر الشيخ بعد ذلك آية لقمان .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي : لا يعلمُ وقتَ وقوعِها ووقتَ قيامِها إلا هو سبحانه ، قال تعالى : ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب :٦٣] ، وقال تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، فأخبر الله تعالى أنَّ عِلْمَهَا عنده سبحانه ، وأخبر بأنها لا تأتي إلا بغتة، أي : فجأة ، فالناس لا يشعرون إلا وقد قامت القيامة ، فعلم الساعة لا يعلمه إلا الله ، فهو من علم الغيب .

قال تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي :إنه سبحانه يعلم متى ينزل ، ولا يعلم أحدٌ متى ينزل إلا الله ، ولا يجوز أن يتخرَّصَ أحدٌ بذلك ويقولُ بلسانِ المتيقِّن: ينزل المطر في يوم كذا وكذا، فإن هذا من علم الغيب الذي اختصَّ الله تعالى بعلمه .

وكذلك أيضاً مقدماته كإرسال الرياح ، وإنشاء السُّحُب ، وكذلك ما ينزل منها كالصواعق وما أشبهها ، فكلُّ ذلك علمُه عند الله تعالى .

قال تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ ، فالله سبحانه يعلم ما في أرحام الإناث ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو أكثر . ولا يطَّلِعُ أحَدٌ على ما في هذه الأرحام ، ولا يعلم أحد أذكرٌ أم أنثى إلا الله عز وجل .

وما ذُكِرَ عن الأطباء أنهم يعلمون ذلك ؛ فهذا لا يكون بعلم ظاهر ، وإنما بتحليلات وأشعة ، فهو كما لو شُقَّ البطن ، وقبل ذلك فلا يمكن لهم أن يعرفوا شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي : إن الإنسان لا يدري ما سيحصل له في اليوم التالي ، فلا يعلم أحدٌ ماذا سيكسب في غدٍ ؟ وهل يربح أم يخسر؟

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي : لا يعلم أحدٌ في أيِّ أرضٍ يأتيه الأجل ، فإذا قدَّر الله أنَّ الإنسان يموت في تلك البلدة ؛ جعل له فيها غرضاً وحاجة حتى يذهب إليها .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي هو سبحانه العليم بذلك كله .

* * *

«ونؤمن بأن الله يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء :١٦٤] ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢]».

هذه الجُمَلُ وما قبلها وما سيأتي بعدها كلُّها متفرِّعةٌ عن الإيمان بالله

وذلك لأنه أصل أركان الإيمان الستة ، فمن آمن بالله ؛ آمن بكلامه واتَّبَعَ ما فيه ، ومن آمن بالله آمن برسله، ومن آمن بالله آمن بخبره وآمن باليوم الآخر وآمن بالبعث بعد الموت وبكل ما أخبر الله به . فالذين لم يؤمنوا بالله كالدهريين ؛ لم يؤمنوا بهذه الأخبار كلها، ولا يرونها شيئاً ؛ فلذلك يؤكِّدُ العلماء على الإيمان بالله ، وكذلك كل ما يلحق بالإيمان به سبحانه وتعالى.

فالإيمان بألوهيته والإيمان بربوبيته والإيمان بأسمائه وصفاته ، وهكذا الإيمان بخبره وأمره ونهيه ، كل ذلك تفاصيلٌ للإيمان بالله .

ومن صفاته سبحانه وتعالى ؛ صفة الكلام ، وذلك لأنه من صفات الكمال ، ونفيَه من صفات النقص ، فإن غيرَ المتكلِّم ناقص كما هو مشاهد ، فالإنسان كامل ؛ لأن من صفاته أنه يتكلَّم، وبهيمة الأنعام ناقصة ؛ لأن من صفاتها أنها لا تتكلَّم ، فلذلك كانت صفة الكلام صفة كمال .

ونحن نؤمن ونقول : إن الله تعالى يتكلم بما يشاء متى يشاء كيف يشاء .

وقد أنكر ذلك المعتزلة ؛ لأنهم فهموا أن الكلام إنما يكون للإنسان ، والإنسان حين يتكلَّم ؛ فإنه يحتاج إلى لسان وشفتين وأسنان ولهَوَات وحنجرة ونَفَس ، فقالوا : هذه صفات المخلوق ، فإذا أثبتنا الكلام لله ، أثبتنا صفة المخلوق وشَبَّهْناه به، وهكذا خُيِّل إليهم .

ولا شكَّ أن هذا خللٌ ونقصٌ في الأفهام ؛ لأن الله تعالى يتكلَّم كيف يشاء ، ولا نعلمُ كيفيَّةَ تكلُّمِه ، بل نقول: إنه يتكلَّم ، ولكن لا نعلم كيفيَّة كلامِه .

وقد أخبر تعالى بأنه كلَّم موسى في هذه الآية من سورة النساء : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ أكَّده بقوله : ﴿تَكۡلِيمًا ﴾ .

وفي سورة البقرة يقول الله تعالى : ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ ﴾ [البقرة :٢٥٣] ، وكلمة : ﴿وَكَلَّمَ ﴾ صريحةٌ في الكلام ، فلذلك يُثْبِتُ أهلُ السنة هذه الصِّفة ؛ كما يليق بجلالِ الله وعظمته .

وقد ثَقُلَتْ على المعتزلة هذه الآيات ، فقد ذُكِرَ [1] أن أحد المعتزلة جاء إلى أبي عمرو أحدِ القراءِ السبعةِ من أهل العراق ، فقال له : أريد منك أن تقرأ هذه الآية بنصب لفظ الجلالة ؛ فتقرأها : ﴿ وكلَّم اللهَ موسى تكليماً ﴾ ، وأراد بذلك أن يكون موسى هو المتكلِّم ، أي : إن موسى هو الذي كلَّم الله.

فقال له أبوعمرو ابن العلاء رحمه الله : هَبْ أني قرأت هذه الآيةَ كذلك، أو أنك قرأتَها كذلك ، فكيف تصنع بقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾؟ فبُهت ذلك المعتزلي ؛ لأن هذه الآية لا يقدر على تحريفها ، فلذلك جاء بها الشيخ رحمه الله .

ثم إن أولئك المعتزلة أوَّلوا هذه الآيات ، يريدون صرفها عن ظاهرها ، فقالوا : ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ ، أي جرَّحه بأظافير الحكمة ؛ لأن الكَلْم هو

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢٥٨) .

وأوردها ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ١٩٩) بقوله : « حُكي عن بعض المعتزلة أنه قرأ على شيخ من أهل السنة ... » فذكره .

الجرح، واحتجوا بهذا .

ونحن نقول : إن هذا ينافي كرامة موسى عليه السلام ، فإن التجريح عذاب وليس بشرف ، والله تعالى قد أخبر أن لموسى عليه السلام شرفاً وميزة ، ثم يُحتجُّ عليهم بقول الله تعالى : ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف :١٤٤] ، فلا يستطيعون أن يقولوا بجرحي، ثم يُحتجُّ عليهم أيضاً بآيات النداء ، ولذلك ذكرَ الشيخُ بعضَها ، كهذه الآية: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ ، والنداء لا يكون إلا بصوتٍ وكلامٍ مسموع .

وقوله تعالى : ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ ، والنَّجِيُّ : هو السِّر ، وهو كذلك الرجلُ المخصوصُ بالنَّجوى ، الذي يُسَارُّه صاحبُه بكلامٍ لا يسمعه غيرُهما .

وآيات النداء في القرآن كثيرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء :١٠]، وقال الله تعالى : ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [النازعات :١٥-١٦] ، وقال تعالى : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف :٢٢] والأدلة في هذا المعنى كثيرة معلومة .

* * *

« ونؤمن بأنه ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف : ١٠٩] ، ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ » [لقمان : ٢٧].

لما ذكر الشيخُ - رحمه الله - صفة الكلام ؛ ذكر أن كلام الله ليس له نهاية، قال الله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ والمداد: هو الحبر . أي : لو أنَّ البحرَ كلَّه حِبرٌ ، وكُتب به كلامُ الله ؛ لنفد البحرُ قبل أن ينفدَ كلامُ الله ، ولو جيء بمثلِه ومعه أمثالُه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي : ولو كان البحرُ أمداداً ، كلما نفد بحرٌ جيء ببحر .

وهكذا أيضاً في الآية الأخرى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ أي : جميع شجر الدنيا من أولها إلى آخرها صارت أقلاماً . ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ أي: بحار الدنيا . ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ فكُتِبَ بتلك الأبْحُرِ كلِّها وجعلت مداداً ، وكُتِبَ بأشجار الدنيا وجعلت أقلاماً ؛ لنفد البحرُ و﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ ، وذلك لأنه لا بداية لها ولا نهاية ، والبحر له منتهى .

وأشجار الدنيا أيضاً لها منتهى ، فلو كانت كلُّها أقلاماً ، والبحار معها سبعةُ أمثالِها ، فصارت كلها مداد حبر ، وكُتِبَ بها كلامُ الله ؛ لتكسَّرت الأقلام ، ولنفدت البحار قبل أن ينفد كلام الله ؛ وذلك دليل على أن لا نهاية لكلام الله عز وجل.

* * *

«ونؤمن بأن كلماته أتم الكلمات صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام ، وحسناً في الحديث ، قال الله تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام :١١٥] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ » [النساء :٨٧] .

كلام الله عز وجل كلام مُتَّصِفٌ بالصدق وبالعدل وبالحسن، قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام :١١٥] أي : صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ فمن أصدق؟ لا أحدَ أصدق من الله ، وأهل السنة يؤمنون بذلك كله .

* * *

« ونؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، تكلم الله به حقاً وألقاه إلى جبريل ، فنزل به جبريل على قلب النبي ﷺ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢]، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٥] » .

هذه المسألة من أكبر المسائل التي حصل فيها الجدال بين أهل السنة والمعتزلة ، فإنهم لما اعتقدوا أن الله لا يتكلم ، وجاءهم هذا القرآن ، وفيه : أنه كلام الله ؛ تحيَّروا كيف يقولون ؟ فلقَّنهم الشيطان أن يقولوا : إنه مخلوق، فتتابعوا على ذلك ولا يزالون عليه .

وقد ذكرنا أن الإباضية على هذا المعتقد - معتقد المعتزلة - إذْ يعتقدون

أنَّ القرآن مخلوق ، وأن كلام الله ليس بحقيقة ؛ بل هو كلامٌ مخلوقٌ ، هكذا خُيِّل إليهم .

ثم لمَّا اعتقدوا ذلك ؛ لم يكن لهم بُدٌّ من تأويلٍ يتأوَّلون به الآيات ، مثلَ قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة :٦] صريحٌ بذلك : ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ .

ومثلَ قولِه تعالى في سورة الفتح : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح :١٥] ، فصرَّح سبحانه وتعالى في هذه الآية بأنَّ القرآنَ قولُه ، وبأنه كلامُه .

وكذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة :٧٥] .

فلم يجدوا بُدّاً من أن يقولوا : إن هذه الآيات مجاز ، وإن الله لا يتكلم لأنه لو تكلَّم للزم من كلامه إثبات هذه الجوارح ، فاعتقدوا بأن القرآن مخلوق . وإذا سُئلوا : كيف خُلق ؟ قالوا : كما خُلق الإنسان ، وكما خُلقت الدَّواب ، وكما خُلقت السماوات والأرض والجبال وما فيها .

ولو كان الأمر كما يقولون ؛ لكان هناك دليلٌ ـ ولو دليلٌ واحد ـ على أنه مخلوق، ولن يجدوا.

يقول بعض العلماء[1] : إن الله أخبر في كتابه عن خلق الإنسان في نحو ثمانية عشر موضعاً ، وكلُّها يُـخبر الله فيها ؛ أنه خَلَق الإنسان ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ ﴾ [الحجر : ٢٦] ، وذَكر القرآنَ في أربعةٍ وخمسين موضعاً ، ولم يُـخْبِر اللهُ في واحدٍ منها ؛ أنه خلق القرآن .

بل تأتي آيتان مترادفتان ، فيُفرِّق بينهما ، قال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ [الرحمن :١-٣] . فانظـر كيـف قال عز وجل : ﴿عَلَّمَ ﴾ ثم قال ﴿ خَلَقَ ﴾ ؟

فهذا دليلٌ على أن هناك فرقاً بين المخلوق وغيرِ المخلوق.

ويعتقد أهل السنة أنَّ القرآن كلامُ الله تعالى ؛ تكلَّم به حقيقة ، وأنه حروف وأصوات، وأن جبريل سمعه من الله تعالى ، ونزل به على قلب النبي ﷺ .

ويعتقد أهل السنة أن كلام الله قديمُ النوع ، متجدِّدُ الآحاد ، أي : إن كلام الله ليس له بداية ، وهو قديم ، ومع ذلك فإنه لم ينقطع ، خلافاً للذين يقولون: إن الله تكلَّم فيما مضى ، وبعد ذلك لا يتكلَّم ؛ بل هو سبحانه إذا شاء جدَّد كلامه ، فهو سبحانه يتكلَّم متى شاء كيف شاء.

وقد أطال أهلُ العلم من أهل السنة في مجادلة أولئك المعتزلة ، وأطالوا الكلام فيما يتعلق بهذه المسألة .

---

(١) انظر : كتاب الحيدة للكناني (ص/ ١٣٤) .

فالمعتزلة يقولون : إن القرآن مخلوق . وأما الأشاعرة فإنهم لمَّا سمعوا من الأئمة أن الله يتكلَّم ، وأن القرآن كلام الله - وقد كانوا يوافقون المعتزلة في نفي الكلام الحسِّي - ادَّعوا : أن القرآن عبارة ، أي : كالترجمة ، وادَّعوا أيضاً : أن كلام الله كلامٌ نفسي ، لا أنه يتكلَّم بكلامٍ مسموع ، وأن هذا القرآن ليس هو عين كلام الله ، وإنما هو عبارة أو حكاية عن كلام الله .

وهذا في الحقيقة مُوافَقَةٌ لمن قال : إن الله تعالى لا يتكلم ، ولمن قال : إن القرآن ليس عين كلام الله .

وأما أهل السنة فإنهم يعتقدون: أنَّ القرآن عينُ كلام الله ، وهذا هو الصواب .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ وروح القدس : هو الملَك الذي نزَّل القرآن بأمر الله ، ولم يقل : «خلقه الله» ، ولم يقل : « إنه عبارة عن كلام الله » .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : مُنَزَّلٌ من رب العالمين. ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ وهو الملَك جبريل عليه السلام ، فهو الروح الأمين. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي: ألقاه على قلب النبي ﷺ ليكون ﴿ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ . أي : إنه نزل باللسان العربي .

* * *

« ونؤمن بأن الله عز وجل عليٌّ على خلقه بذاته وصفاته ؛ لقولـه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة :٢٥٥] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام :١٨] ».

مسألة العلو مسألة كبيرة أيضاً على أولئك المعطلة من المعتزلة وغيرهم، وقد دخل فيهم الإباضية والزيدية والرافضة ، فكلُّهم قالوا بقول المعتزلة .

وكذلك الأشاعرة وأغلب الفرق ؛ يستبعدون صفة العلو الذاتي لله عز وجل .

وقد انتشرت هذه المذاهب في بلاد المسلمين ؛ فالمذهب الأشعري انتشر في المغرب والبلاد الأفريقية ، وقريب منه المذهب الماتريدي ، انتشر في المشرق ، وتمكَّن في الهند والسند وما حولها من البلاد ، والمذهب المعتزلي الذي عليه الزيدية والرافضة انتشر في العراق ونحوه .

وأهلُ السنة قِلَّةٌ فيما بينهم ، ولا نستغرب كثرة أولئك ، فإن أهل الشر أكثر كما قال تعالى : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام :١١٦] .

وكثير من كتب أهل السنة تتعلق بمسألة العلو ، وهي من أجلِّ المسائل ، وقد كتب فيها المتقدمون .

وقد مرَّ معنا أن القاضي أبا يعلى الحنبلي لمَّا ألّف رسالة في إثبات صفة العلو ؛ صاحَ عليه أهلُ زمانِه ، وقالوا : إن أبا يعلى مجسم ، فقال لهم : أنا ما أتيت بشيء من قِبَل نفسي ، وإنما نقلْتُ كلام الأئمة وكلام العلماء .

فهؤلاء المبتدعة يصفون كلَّ مَنْ أثبت صفة العلو ؛ بأنه مجسِّم أو مشبِّه .

وقد أطال أهل العلم رحمهم الله الكلامَ في هذه المسألة ، وأطالوا الكلام أيضاً في نقاش المخالفين .

منهم الإمام ابن القيم رحمه الله ، فقد ذكر في النونية واحداً وعشرين قسماً من أقسامِ الأدلةِ على إثبات صفة العلو ، وكل قسم تحته مجموعة من الأدلة ، يقول في أولها [(١)] :

منها استواء الرب فوق العرش في ... سبعٍ أتت في محكم القرآن

ولذلك اطَّردت بلا لام ولو ... كانت بمعنى اللام في الأذهان

لأتت بها في موضع كي يحُمل الـ ... ـباقي عليها بالبيان الثاني

فآيات الاستواء سبع ، وكلها بلفظ « استوى » ، وقد حرّفها المعتزلة تحريفاً لفظياً وزادوا فيها لاماً ؛ فقالوا: استولى ، وهذه اللام زائدة ، وهي شبيهة بالنون التي زادها اليهود ، لمَّا قيل لهم قولوا : حِطَّة ، قالوا : حنطة.

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)] :

نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان

فزادوا فيها هذه النون ، والأصل : أن الله مستوٍ على عرشه كما يشاء .

---

(١) (ص/ ٧٣) : فصلٌ في الإشارة إلى الطرق النقلية الدالة على أنَّ الله سبحانه فوق سماواته على عرشه .

(٢) (ص/ ١١٢) : فصلٌ في تشبيه المحرِّفين للنصوص باليهود وإرثهم التحريف منهم .

ومن أقسام الأدلة : قسم العلو : ذكره الله في عدة آيات ، منها : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى :١] ، ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل : ٢٠] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤] ، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى : ٥١] ، فهذه آيات صريحة في إثبات العلو .

ولكن قد يقال : إن العلوَّ قد يراد به علو القدر ؛ كما قال فرعون لقومه: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] أي : إنه الأعلى قدراً ، ولكن الصحيح : أن علو الله تعالى يعمُّ أنواعَ العلوِّ الثلاثة : علو القدر ، وعلو القهر ، وعلو الذات .

فعُلوُّ القدرِ هو علوُّ المكانةِ والرفعةِ والفضلِ ، ومنه قول فرعون : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ .

وعلوّ القهر هو علو الغلبة ؛ مثل علو فرعون على قومه في قوله : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف :١٢٧] ، أي : إنه عالٍ عليهم ، وغالبٌ لهم ، ومستولٍ عليهم .

فلله تعالى علوّ القهر وعلوّ الذات ، أي : إنه بذاته سبحانه فوق عباده وفوق جميع المخلوقات .

كذلك من أقسام الأدلة : آيات الفوقية:

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام :١٨، ٦١] في آيتين من سورة الأنعام .

ولكن قد يُقال : إن المقصود بالفوقية هنا فوقية الغلبة ؛ لأن فرعون قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف :١٢٧] أي : غالبون .

فعند ذلك ؛ قال أهل السنة : إن هناك آية في سورة النحل لا تحتمل التأويل، وهي قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل :٥٠] ، صريحٌ في أنها فوقية الذات .

وعلى كل حال ؛ فإن أهل السنة والجماعة يثبتون صفة العلو لله عز وجل وأنه سبحانه فوق عباده ؛ عليٌّ عليهم بذاته وصفاته ، ويثبتون أن هذه الصفة من أعظم الصفات الجامعة لكل صفات الكمال والجلال .

* * *

« ونؤمن بأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس :٣] واستواؤه على العرش : علوه عليه بذاته علواً خاصاً يليق بجلاله وعظمته لا يعلم كيفيته إلا هو » .

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ آية الاستواء : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾.

وقد ذُكر الاستواء في سبعة مواضع من القرآن : في سورة الأعراف [الآية: ٥٤] ، وفي سورة يونس [الآية :٣] ، وفي سورة الرعد [الآية :٢] ، وفي سورة طه [الآية :٥] ، وفي سورة الفرقان [الآية :٥٩] ، وفي سورة السجدة [الآية :٤] ، وفي سورة الحديد [الآية :٤] .

وقد فُسِّر الاستواء بأربعة تفاسير ، ذكرها ابن القيم في النونية[1] حيث يقول :

فلهــم عبــارات عليهــا أربــع	قــد حُـصِّلَت للفــارس الطعَّــان
وهـي استقر وقـد عـلا وكـذلك ارْ	تَفـع الـذي مـا فيـه مـن نكـران
وكـذاك قـد صـعد الـذي هـو رابـع	وأبــو عبيــدة صــاحب الـشيباني
يختــار هــذا القــول في تفــسيره	أدرى مــن الجهمــي بــالقرآن

فهكذا عباراتهم : استوى يعني استقر ، استوى يعني علا ، استوى يعني ارتفع ، استوى يعني صعد .

وابن جرير رحمه الله كلما جاء إلى آية من آيات الاستواء ؛ فسَّرها بقوله: «استوى على العرش : علا وارتفع » .

وقد تكلَّم رحمه الله على الاستواءِ في أولِ سورة البقرةِ في قولهِ تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ ﴾ [البقرة :٢٩] ، وذكر أن الاستواء إذا جاء بدون (على) وبدون حرف ؛ فيراد به التَّمام ، كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ [القصص :١٤] أي : كَمُلَ وتمَّ .

وأما إذا أتى ومعه (على) فلابد أنه العلو ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود :٤٤] أي : استقرَّت السفينةُ وارتفعتْ على

---

(١) (ص/ ٨٥) : فصلٌ في الإشارة إلى الطرق النقلية الدالة على أنَّ الله سبحانه فوق سماواته على عرشه .

جبلٍ يقال له الجودي ، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف : ١٣] أي : على ظهورِ البهائمِ المركوبات ، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وغير ذلك من الآيات.

فدلَّ ذلك على أن معنى الاستواء : العلو والاستقرار ، وعلو الله عليه هو عُلوُّه بذاته عز وجل ؛ علوٌّ يليق بجلاله وعظمته ، لا يعلم كيفيته إلا الله .

والكيفية هي التي يفوِّضها أهل السنة رحمهم الله .

رُوِيَ عن مالك أن رجلاً جاء إليه ، فقال: كيف استوى؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة، ولا أراك إلا مبتدعاً[١] .

وهذا الأثر رُوي عن شيخ مالك ؛ ربيعةَ بنِ أبي عبد الرحمن ؛ فإنه قد ذُكِرَ عنه أنه قال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم[٢] .

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٧) ، و اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦٦٤) وقال الذهبي في العلو (ص/ ١٠٤) : « وروى يحيى بن يحيى التميمي وجعفر بن عبدالله وطائفة قالوا : جاء رجلٌ إلى مالك ... فذكره . ثم قال : هذا ثابت عن مالك وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك ، وهو قول أهل السنة قاطبة » .

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٨) ، وابن بطة في الإبانة (١٢١) ، والذهبي في العلو (٣٢٢) وصححه . وقال شيخ الإسلام في الحموية (ص/ ٣٠٣) : « وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة قال : سُئل ربيعة ... فذكره » .

ورُوي هذا الأثر أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها[1] .

وقولهم : (الكيف مجهول) ، (الكيف غير معقول) أي : إن كيفية الاستواء هي التي لا تصل إليها أذهاننا ؛ لكننا نعرف أن الاستواء كلمة معلومة مفهومة ، يعرفها العرب ، ويُفَسِّرُونَهَا ، ويترجمونها من لغة إلى لغة .

* * *

« ونؤمن بأنه تعالى مع خلقه وهو على عرشه ، يعلم أحوالهم ، ويسمع أقوالهم ، ويرى أفعالهم ، ويدبِّر أمورهم ، يرزق الفقير ويجبر الكسير ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١] » .

ذكر الشيخ رحمه الله المعيَّة بقوله : « ونؤمن بأنه تعالى مع خلقه وهو على عرشه » ، وهذه المعيةُ ذَكَرَها الله تعالى في عدة مواضع من كتابه ، منها قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد :٤] ، وفي قوله تعالى :

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦٦٣) ، والذهبي في العلو (١٦٥) ، وقال عقبه : « هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأي ومالك والإمام أبي جعفر الترمذي. فأما أم سلمة فلا يصح لأن أبا كتانه ليس بثقة ، وأبوعمير لا أعرفه » . وقال شيخ الإسلام في الفتاوى (٥/ ٣٦٥) : « وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه » ، وانظر : التسعينيَّة (٢/ ٥٦١).

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء :١٠٨] ، وفي قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة :٧] والمراد بالمعيَّة في هذه الآيات : معية العلم ، ومعية الاطلاع ، ومعية القرب ، ومعية الهيمنة . أي : إنه سبحانه معهم ، ويراهم ، ويطَّلِعُ عليهم ، ويعرف أحوالهم، يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق :١٦] ، فأخبر تعالى بأنه معهم ، ومعنى ذلك ؛ أنه يعلم أحوالَهم ، ولا يخفى عليه شيء من ذلك .

وقد ذكر أهل العلم أن المعية تنقسم إلى قسمين : معية خاصة ومعية عامة.

فأما المعية العامة ؛ فهي التي ذكرها الشيخ رحمه الله ، وهي التي تقتضي الإحاطة والعلم والاطلاع على عباده ، و علمه بأحوالهم ، وما تخفيه ضمائرهم ، وهذه المعية معيةٌ عامة لجميع الخلق .

وأما المعية الخاصة ؛ فهي المعية الخاصة بالمؤمنين التي تقتضي النصر والإعانة والتمكين ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [النحل: ١٢٨] ، وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] ، وقوله : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال : ١٢] ، وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

ولا تعارض بين معية الله عز وجل واستوائه على عرشه جل وعلا .

فإن العربَ يقولون : ما زلنا نسير والقمر معنا [1]. أي : إننا نراه ويصل إلينا ضوؤه ، ومعلوم أن القمر في السماء ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان :٦١] ، فقولهم : (القمر معنا) أي : إننا نشاهده ويضيء لنا ، فكذلك إذا قلنا : (الله مَعَنا) أي : إنه سبحانه يعلم أحوالنا ، ويعلم سرائرنا ، ويطَّلع علينا ، وهذه المعية لا تنافي علوه، فإنه تعالى عليٌّ في دنوِّه ، قريبٌ في علوِّه ، يعلم أحوال عباده ، « ويسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم ، ويدبر أمورهم ، يرزق الفقير ، ويجبر الكسير ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة ، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة » ، فهو سبحانه وتعالى مُطَّلِعٌ على عباده ، ويرى أحوالهم ؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

* * *

« ولا نقول كما تقول الحلولية من الجهمية وغيرهم : إنه مع خلقه في الأرض ، ونرى أن من قال ذلك فهو كافر أو ضال ؛ لأنه وَصَف الله بما لا يليق به من النقائص » .

---

(١) انظر : الحمويَّة (ص/ ٥٢١) .

فهم يقولون : إنه مُخْتَلِطٌ بالخلق ، وهو معهم في جميع الأماكن ، تعالى الله ، بل هو سبحانه على عرشه بذاته ، وهو مع عباده بعلمه ، وباطِّلاعه ، وبهيمنته ، وبمراقبته لأحوالهم ، وبنظره إليهم .

وفائدةُ الإيمانِ بذلك : مراقبةُ الله تعالى. فإذا قيل : إن الله تعالى مَعَنا ، فإننا نخشاه ، ويقول أحدُنا : كيف نعصيه ونبارزه بالمعصية ، وهو سبحانه معنا، يرانا ويطَّلع علينا ويعلم أحوالنا ؟ ونحن نعلم أنه يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وبيده الخير ، وأنه سبحانه هو السميع البصير .

والذين يقولون : إن الله تعالى في كل مكان ؛ جعلوه في الحشوش وفي الأماكن المستقذرة وفي كل مكان ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

* * *

« ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله ﷺ أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ »[1] .

هذه مسألة النزول ، وهي أيضاً مما كَبُر على أولئك المعطلة ، وثَقُل عليهم تقبُّلها ، ولجؤوا إلى تحريفها .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة ، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (١١٤٥) ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨) .

وكذلك أيضاً: آياتُ المجيء الواردة في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر :٢٢].

وكذلك آياتُ الإتيان في مثل قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة :٢١٠]، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام :١٥٨]، وكذلك الأحاديث التي فيها أن الله ينزل لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة.

فهذه الآيات وأمثالها ثَقُلَتْ على أولئك المبتدعة من الأشعرية والمعتزلة والماتريدية ونحوهم؛ فلما ثَقُلَتْ عليهم، لم يكن لهم بُدٌّ من تحريفها، وأكثرهم يقولون: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: جاء أمره، ومنهم زاهد الكوثري، حيث إنه علَّق على كتاب الأسماء والصفات للبيهقي، وأفسده بتلك التعليقات، حيث أخذ يحرِّف كل صفة دلت عليها الأحاديث.

ولمَّا جاء على آية الإتيان في سورة الأنعام: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام :١٥٨]؛ قال عند قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ إن المرادَ إتيانُ أمرِه.

وقد قرأتُ في بعض التفاسير للأشاعرة، عند قول الله تعالى في أول سورة الحشر: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر :٢]؛ أن المراد أتاهم أمر الله، ثم أخذ يُلْحِقُ بها بقية الآيات، وأن المراد بها كلها إتيان أمر الله.

ولو كان كذلك؛ ما ذَكَرَ الله إتيانَ أمرِه بعده في آية الأنعام: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

و﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ هي أمر الله، فدل ذلك على أن الله يأتي كيفما يشاء .

وكذلك أيضاً ثَقُلَتْ عليهم أحاديث النزول، ومنهم الإمام النووي ـ عفا الله عنه ـ في شرحه على صحيح مسلم ، فإنه أوَّلَ هذا الحديث : « ينزل الله إلى السماء الدنيا ... »[1] ، وكذلك أوَّل حديث الجارية التي قالت لرسول الله ﷺ لمَّا سألها : « أين الله ؟ » قالت : في السماء[2] .

والذي يظهر أنَّ مشايخه الذين درس عليهم كانوا أشاعرة ، فتأثَّر بهم ، ولم يجد بُدّاً من موافقتهم، فأنكر أن يكون الله في السماء ، وأنكر نزولَه عز وجل إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله ، وأخذ كغيره يؤوِّل هذه الصفات كصاحب فتح الباري ، وما صدر منهم مثل هذا ؛ إلا لمَّا غلبت الأشعرية عليهم عفا الله عنا وعنهم .

والأَوْلَى أن يُقال : إن الله يفعل ما يشاء ، وإنه ينزل كما يشاء ، ولا نقول : إن العرش يخلو منه ، ولا نقول : إن شيئاً من مخلوقاته يحويه أو يحصره ، فإنَّ نزولَه سبحانه لا ينافي فوقيته ، ولا ينافي كونه على العرش ، ولا ينافي أنه ينزل عند هؤلاء وعند هؤلاء في ثلث الليل الآخر ؛ لأنه سبحانه : ﴿لَيْسَ

---

(١) تقدم تخريجه قريباً .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة (٥٣٧) .

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

* * *

«ونؤمن بأنه سبحانه وتعالى يأتي يوم المعاد للفصل بين العباد لقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر : ٢١-٢٣] » .

يأتي اللهُ تعالى يومَ القيامةِ ليَحْكُمَ بين الخلق ، عندما يشفع النبي ﷺ لهم لفصل القضاء بين العباد ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر: ٢١] ، وهذا يكون يوم القيامة ، ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] ، فنجد أن الله عز وجل فرَّقَ بين مجيئه ومجيء الملائكة .

ثم يحاسب الله عباده: ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر : ٢٣] ، ويُـجاء أيضاً بجهنم ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَكٍ يجرُّونها[١] .

* * *

« ونؤمن بأنه تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود :١٠٧] » .

ذكر الشيخ رحمه الله بعد ذلك بعض الصفات الفعلية الأخرى التي منها

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، بابٌ في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها (٢٨٤٢) .

الإرادة ، وهي : العزم على فعل الشيء أو الأمر به .

* * *

« ونؤمن بأن إرادته تعالى نوعان :

كونية : يقع بها مراده ولا يلزم أن يكون محبوباً له ، وهي التي بمعنى المشيئة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود :٣٤] .

وشرعية : لا يلزم بها وقوع المراد ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً له كقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء :٢٧] » .

إرادة الله تعالى نوعان : إرادة كونية ، وإرادة شرعية .

فالإرادة الكونية ؛ يقع بها مراد الله ، ويدخل فيها خلق الكائنات ، وجميع الحوادث التي تحدث في السماوات والأرض ، والتي أرادها الله وأوجدها سبحانه ، ولو شاء ما حصلت .

فالحوادثُ كلُّها كالموت والإغماء والفقر والإيمان والكفر ؛ مرادةٌ لله إرادةً كونية ، فهو سبحانه فعّال لما يريد ، لا يكون في ملكه ما لا يريد ، بل هو على كل شيء قدير ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد .

فهذه هي الإرادة الكونية ، والتي يقع مراد الله بها ، لكن قد يكون محبوباً كالعبادات ، وقد يكون غير محبوبٍ كالمعاصي ، فالمعاصي التي تقع من العباد قد أرادها الله كوناً وقدراً ، ولم يردْها ديناً وشرعاً ، ولم يحُبَّها ،

وكذلك الطاعات التي تقع من العباد ؛ قد أرادها الله كوناً وقدراً ، وأرادها ديناً وشرعاً ، وأحبَّها .

هذه هي الإرادة الكونية ، وهي أيضاً بمعنى المشيئة .

فمشيئة الله وإرادته الكونية معناهما واحد ، فهو سبحانه وتعالى يشاء كل ما في الوجود من الموجودات ، يقول الله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، فها هنا ذكر المشيئة والإرادة ، واقتتالهم قد أراده الله كوناً وقدراً .

قال تعالى : ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا كلام نوح عليه السلام ، لمَّا قال له قومه : ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود :٣٢] ؛ قال : ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ أي : إرادة كونية . وأكثر الإرادات الواردة في القرآن هي بهذا المعنى الذي هو الإرادة الكونية ، مثل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة :١] قال تعالى في آخرها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي : كل ما أراده الله في خلقه من الحوادث والفرائض والحدود ؛ فقد أحكمه سبحانه وقضاه وأمضاه .

ومثل قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام :١٢٥] ، فالإرادة ها هنا إرادة كونية ، ولا يلزم محبة المراد بها . والله سبحانه وتعالى أراد إيمان المؤمنين

إرادة كونية فحصل ، وأراد إيمان الكافرين إرادةً شرعية ولم يُرِدْه إرادة كونية فلم يحصل ، وأراد الله كفرَ الكافرين وبدعَ المبتدعين كوناً وقدراً فحصل ، ومع ذلك فهو سبحانه لا يرضاه ولا يحبه .

أما الإرادة الشرعية ؛ فهي الأوامر والنواهي ، ولا يلزم منها وقوع المراد ، ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً .

فنقول : إن الطاعات التي تقع من المؤمنين أرادها الله كوناً وقدراً ، وديناً وشرعاً فلذلك حصلت . أي : إن إيمان المؤمنين وطاعاتهم وعباداتهم أرادها الله كوناً وقدراً ، وديناً وشرعاً فاجتمعت فيها الإرادتان .

أما إيمان الكفار فأراده الله ديناً وشرعاً ولم يرده كوناً وقدراً فلم يحصُل .

* * *

« ونؤمن بأن مراده الكوني والشرعي تابع لحكمته ؛ فكل ما قضاه كوناً أو تعبد به خلقه شرعاً فإنه لحكمة وعلى وفق الحكمة ، سواء علمنا منها ما نعلم أو تقاصرت عقولنا عن ذلك ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين :٨] ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠] » .

كل ما قضاه الله تعالى كوناً وقدراً من المصائب والمعاصي ؛ فإنه لحكمة وعلى وفق الحكمة .

وكذلك العبادات والطاعات وكلُّ ما قدَّره شرعاً وأمر به ، وتعبَّدَ به العباد شرعاً فحصل ؛ فإنه أيضاً لحكمة ، وعلى وفق الحكمة ؛ عَلِمْنَا من تلك الحكم ما نعلم أو تقاصرت عقولُنا عن ذلك .

فإيمان الكفار قد أمر الله به ديناً وشرعاً ، ولم يحصل ، لأن الله أراد إيمان الكفار ديناً وشرعاً ، ولم يُرِدْه كوناً وقدراً ، فلم يحصل إيمانُهم ولم يقع ؛ لأنه تعالى لم يُرِدْ إيمانهم كوناً وقدراً ، وكل ذلك لحكمة وعلى وفق الحكمة، فالله سبحانه وتعالى : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء :٢٣] ، ولله سبحانه وتعالى الحكمة البالغة ، حيث خذل هؤلاء فكفروا ، وهدى هؤلاء فآمنوا ، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ؟ بلى .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠] من أحسن ؟ لا أحد أحسن من الله حكماً . فإنَّ مِنْ حكمة الله تعالى أنه يهدي من يشاء ، ويضلُّ من يشاء ، ويأمر بما يشاء ، وينهى عمَّا يشاء ، وكل ذلك لحكمة .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى يحب أولياءه وهم يحبونه ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران :٣١] ، ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران :١٤٦] ، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات :٩] ، ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] » .

الله عـز وجـل موصـوفٌ بـصفةِ المحبـةِ عـلى مـا يليـق بجلالـه سـبحانه وعظمته، وقد أنكرها الأشعرية والماتريدية والمعتزلة .

وفسَّرها الأشعرية بالإرادة ، وقالوا في قوله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ أي : يريد لهم الخير ، فإذا قالوا ذلك ؛ نقول لهم : ما معنى الإرادة؟ هل هي كإرادتنا ؟ فإذا قالوا: لا ، بل إرادة تليق بالله ؛ قلنا لهم : فقولوا كذلك في المحبة ، وأنها محبة تليق بالله، ولا تصرفوا المحبة إلى الإرادة ؛ فالله تعالى أثبت أنه يحب، قـال تعـالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، وهـذه الآيـة في سورة آل عمران ، وتُسمَّى آية المحنة . فإن الله امتحن بها الذين يدَّعون محبة الله ، فجعل للمحبة علامة ؛ ألا وهي اتباع النبي ﷺ إن كانوا صادقين ، والله سبحانه وتعالى قد جعل لذلك جزاء ؛ ألا وهي محبة الله لهم : ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ .

كذلك آية المائدة : ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة :٥٤] ، بدأ سبحانه بمحبته لهم، فدلَّ على أنه يحُبُّ محبةً تليق به.

وكذلك الآياتُ الكثيرة : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وغيرها من الآيات التي فيها إثبات صفة المحبة لله عز وجل ، وأنه سبحانه يحُبُّ محبةً تليق به .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى يرضى ما شرعه من الأعمال والأقوال ويكره ما نهى عنه منها ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر :٧] ، ﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [التوبة :٤٦] » .

الرضا صفة فعلية لله عز وجل، فإذا رضي اللهُ عن المؤمنين ؛ فإنَّ هذا فعل، والله سبحانه وتعالى يرضى بالتقرُّبِ إليه بالشرائع التي شرعها سبحانه. يرضى بأداء الصلاة له سبحانه ، ويرضى بالصدقة له ، وبالصيام وبالذكر ونحو ذلك .

وكما أنه سبحانه يرضى ؛ فإنه يكره ، فهو سبحانه يكره ما نهى عنه من الأعمال ؛ كالشرك والقتل والزنا ، ويكره ما نهى عنه من الأقوال ؛ كالقذف وشهادة الزور ونحوها .

قال الله تعالى في هذه الآية من سورة الزمر : ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾، فإذا كان سبحانه لا يرضى فإنه يسخط ، وقد أثبت الله صفةَ السُّخْط في قوله : ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد : ٢٨] .

فالسُّخْط ضد الرضا ، وكذلك الغضب ، فها هو سبحانه وتعالى يخبر عن نفسه بأنه يرضى ، فنحن نثبت صفة الرضا ، ونقول : إنه يرضى كما يشاء سبحانه .

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ؛ إثباتُ أن الله لا يرضى الكفر ، وأنه سبحانه يرضى الشكر .

كذلك الكراهية ؛ فإنها صفةٌ ذَكَرَها الله تعالى بقوله : ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة :٤٦] ، فنحن نثبت هذه الصفة وهي الكراهية على ما يليق بجلال الله وعظمته ، وهي من الصفات الفعلية .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ **[البينة :٨] »** .

كذلك نؤمن بأنه سبحانه وتعالى يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فنثبت له صفة الرضا كما أثبتها سبحانه لنفسه ، وذلك في آيات كثيرة ، منها قوله سبحانه : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ .

وفي آخر سورة المجادلة : ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة :٢٢] . وكذا في آخر سورة المائدة : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة :١١٩] ، وفي أثناء سورة التوبة : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة :١٠٠] ، وغيرها من الآيات .

فنثبت صفةَ الرضا لله عز وجل ، ونقول : إن الرضا صفة فعلية يفعلها

سبحانه إذا شاء .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى يغضب على من يستحق الغضب من الكافرين وغيرهم ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح :٦] ، ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل : ١٠٦] » .

كذلك صفة الغضب ؛ فإنا نؤمن بأن الله تعالى يغضب على من يستحق الغضب من الكافرين وغيرهم .

والآيات والأحاديث في إثبات الغضب كثيرة ، قال تعالى في سورة الفتح : ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فأثبت سبحانه صفة الغضب لنفسه ، وكذا قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ .

وقوله عز شأنه : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء : ٩٣] ، وقوله سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة :١٣] ، وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف :١٥٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « **اشتد غضب الله على قومٍ فعلوا بنبيِّه** – يشير إلى رباعيَّته – ، **اشتد غضب الله على رجلٍ يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله**»[1] وغير ذلك من الآيات والأحاديث .

ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التدمرية[2] عن الأشاعرة ؛ أنهم ينفون الصفات الفعلية هذه كلها ، ومع ذلك يثبتون الإرادة ، ويقولون في الغضب : إنه إرادة الانتقام ، وليس غضباً حقيقياً ؛ لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا محال في حق الله تعالى ، هكذا قالوا .

ونحن نقول لهم : أنتم فسرتم الغضب بالإرادة ؛ فهل تريدون إرادةً كإرادتنا ، إذ الإرادة ميل النفوس وميل القلب نحو المراد ؟ فإذا قالوا : هذه إرادة المخلوق ، أما إرادة الخالق فهي كما تليق به ؛ قلنا لهم : قولوا في الغضب ؛ كما قلتم في الإرادة ، فإذا كان ميلُ النفوس وميل القلب نحو المراد ؛ خاصاً بإرادة المخلوق ؛ فكذلك غليان دم القلب ؛ خاص بغضب المخلوق ، أما غضب الله فهو كما يليق بجلاله وعظمته ، فكما قلتم في الإرادة فقولوا في الغضب ؛ فلا فرق بين ما أثبتُّم وما نفيتم .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أُحُد (٤٠٧٣)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، بابٌ اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله (١٧٩٣).

(٢) (ص/ ٣١) . وانظر : الرسالة الأكملية في الفتاوى (٦/ ٦٩، ١١٩) ، والصفدية (٢/ ٣٦) ، ومنهاج السنة (١/ ٤١٦ ، ٢/ ٢٤١) .

« ونؤمن بأن لله تعالى وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن :٢٧] » .

بعد ذلك ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ بعض الصفات الذاتية ، فمن الصفات الذاتية لله عز وجل : الوجه ، جاء إثبات ذلك في عدة آيات ، في مثل قول الله تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، وفي مثل قول الله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف :٢٨] ، وفي مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان :٩] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠)﴾ [الليل : ١٩-٢٠] ، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] ، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن :٢٧] ، فأثبت الله تعالى في هذه الآيات صفة الوجه لنفسه ، وأما الأحاديث فكثيرة في ذلك.

ونحن - أهل السنة والجماعة - نثبت هذه الصفة الذاتية ، ولا نكيِّفها ، فهو وجهٌ حقيقيٌّ موصوفٌ بالجلال والإكرام ، ولا نعلم كيفيته ، فالكيف مجهول .

* * *

« ونؤمن بأن لله تعالى يدين كريمتين عظيمتين ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة : ٦٤] ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر :٦٧] » .

كذلك نثبت صفة اليدين ؛ ففي الحديث : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزَّ وجل ، وكلتا يديه يمين** »[1] ، هكذا أخبر ﷺ بقولـه : « **وكلتا يديه يمين** » أي : مباركة .

وقد ذكر الله تعالى اليديـن في قولـه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة :٦٤] ، فأثبت الله تعالى لنفسه يدين كريمتين عظيمتين .

وقال الله تعالى لإبليس : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص :٧٥] وقد كَبُرَتْ هذه الآيات على المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ، وقالوا : إن المراد باليد في هذه الآية ونحوها ؛ القدرةُ أو النعمةُ ، وليس المراد بها اليد الحقيقيّة ، وخَلْقُ آدم كان بقدرة الله . هكذا قالوا !

ونحن نقول لهم[2] : إذا كانت اليد هي القدرة ، فإبليس خُلِقَ بقدرة الله ، فلا فضل لآدم على إبليس فكلاهما خلق بقدرة الله ، ولكن لمَّا ذكر الله أنه خلق آدم بيديه وصرَّح بذلك في قوله : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ؛ دلَّ ذلك على أن هذه ميزة لآدم على إبليس .

وفي قولـه عز وجل : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ؛ ما ينفي تأويل اليد بالقدرة ، فإن الله عز وجل ثنَّى لفظ « اليد » بقوله : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ، ولا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٧) .

(٢) انظر : الفتاوى (٦/ ٣٦٢ وما بعدها)، وبيان تلبيس الجهمية (٢/ ٢٢-٢٧).

يجوز تثنية القدرة .

وكذلك أثبت الله صفة اليدين في قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر :٦٧]، هكذا أخبر سبحانه أن قبضته يومَ القيامة السماواتُ والأرض، فالأرض قبضته ، والسماوات مطويات بيمينه ، فدلَّ ذلك على أن هناك قبضٌ حقيقي ، ودلَّ على إثبات صفة اليدين .

والمعطِّلة يقولون : إن هذا لتهويل الأمر ، والصحيح : أنه دالٌ على إثبات هذه الصفة .

وقد وردت أحاديث كثيرة تؤيد معنى هذه الآية ، أوردها ابنُ كثير في تفسير هذه الآية من سورة الزمر ، وقبل أن يسردها قال : قد وردت أحاديث كثيرة تؤيد معنى هذه الآية ؛ الطريق فيها وفي أمثالها إمْرَارُها كما جاءت وعدم تأويلها وعدم إنكارها، على حدِّ أمرُّوها كما جاءت بلا كيف.

ثم سرَدَها ، ومنها الحديث الذي فيه : أن الله يجعلُ السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع[(١)] .

ومن الأحاديث التي سردها رحمه الله ؛ الحديثُ الذي فيه أنه ﷺ قال : «**يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى ، ثم**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (٤٨١١) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦) .

يقول : أنا الملك ، أين الجبّارون ؟ أين المتكبِّرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبّارون؟ أين المتكبّرون ؟ »[1] ، وغيرها من الأحاديث.

وقد أشار إليها أئمة الدعوة ، كما في آخر باب من كتاب التوحيد : (باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾).

منها ما ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في هذا الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما : « **ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**»[2] ، وقوله ﷺ : «**ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أُلقيت في ترس**»[3] . والتُّرْس : هو المِجَنُّ الذي يُلْبَسُ على الرأس في القتال ، والدراهم : قطعٌ صغيرةٌ من الفضة.

والواجب في هذه النصوص وغيرها من أدلة الصفات ؛ الإيمان بها ، وأنها صفة كمال وجلال ، لائقة بالله جل وعلا ، لا تماثل صفات المخلوقين .

* * *

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه عبدالله ابن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٧٦) برقم (١٠٩٠) ، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٣٠٨) برقم (٣٠٨) وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٠/ ٢٤٦) من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء به . قال عنه الحافظ في التقريب (ص/ ١١٦) : « بصري ثقة يرسل كثيراً » .

(٣) تقدم تخريجه (ص / ٢٧) .

« ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين لقوله تعالى : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود :٣٧] ، وقال النبي ﷺ : « حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١] .

وأجمع أهل السنة على أن العينين اثنتان ، ويؤيده قول النبي ﷺ في الدجال : « إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور »[٢] » .

ذكر رحمه الله الحديثَ المشهور : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

وقد أثبت الله لنفسه البصر والرؤية ، فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء] .

وأثبت لنفسه العين في قوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه :٣٩] فهذا دليل على إثبات جنس العين .

وأثبت سبحانه العينَ بلفظِ الجمعِ مضافةً إلى ضمير الجمع ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور :٤٨] أي أمام أعيننا،

---

(١) تقدم تخريجه (ص/ ٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٧١٣١) ، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال (٢٩٣٣) .

فهذا كذلك دليلٌ على إثبات صفة العين ، وجُمِعَتْ العين في هذه الآية لأجل جمع الضمير ؛ فلما كان الضمير مجموعاً : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ؛ ناسب جمعها، كما جُمِعَتْ الأيدي في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١] ، وأثبت الله كذلك في آية (ص) اليد بالتثنية ، قال تعالى : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص :٧٥] ، وهنا في هذه الآية أفرد الضمير ، وإذا كان الضمير مفرداً فلا يناسب الجمع ، فذكر التثنية .

وذُكرت الصفة أيضاً بالإفراد ؛ في قوله تعالى في قصة موسى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾.

والحاصل ؛ أن صفة اليد تُذكر :

بلفظ المفرد ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١] .

وتذكر بلفظ التثنية ؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة :٦٤] .

وتذكر بلفظ الجمع ؛ كقوله تعالى : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس :٧١] .

فحيث أُفردتْ أريد بها الجنس لا العدد ، وحيث ثُنِّيَتْ أريد بها الحقيقة - أي حقيقة التثنية - ، وحيث جُمِعَتْ أريد بها التعظيم .

فالإضافة لله تعالى على حسب ما يناسبها .

وما يُقال في صفة اليد ؛ يُقال في صفة العين ، إلا أن صفة العين قد أَشْكَلَتْ ، فهي لم ترد إلا مفردة أو مجموعة ، ولم ترد بالتثنية .

فوردتْ مفردةً ؛ كما في قوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾، ووردتْ

مجموعة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ .

ولكن العلماء أخذوا التثنية للعين من هذا الحديث ؛ وهو قوله ﷺ : «إن ربكم ليس بأعور» ، فهي عينان حقيقيَّتان تليق بجلال الله وعظمته .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] » .

وذلك لأن الإدراك : يعني الإحاطة .

وقد استدل المعتزلة بهذه الآية على نفي الرؤية ، وقالوا : لا تدركه ، أي: لا تراه .

وأجاب أهل السنة الذين يثبتون رؤية الله تعالى في الآخرة ؛ بأن الرؤية شيء غير الإدراك ، فالإدراك زائد على الرؤية .

والصحيحُ أن الله تعالى يُرى ، ولا يُدرك ، أي : لا تدرك ماهيته، ولا يُحاط به .

روى عكرمةُ عن ابن عباس رضي الله عنه : أنه قال في قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم : ١٣] : إن رسول الله ﷺ رأى ربَّه بقلبه ، فقال له رجلٌ عند ذلك: أليس ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؟ فقال له عكرمة : أليس ترى السماء ؟ قال : بلى . قال : أفكُلَّها ترى ؟[1] .

---

(١) أورده ابن جرير في التفسير (٢٢/ ٣٢). والآجري في الشريعة (ص/ ٢٨١-٢٨٢) ، والدارقطني في كتاب الرؤية (٣٠٧) ، وانظر : التسعينيَّة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٣٩٤-٣٩٥).

وعلى هذا نقول : إن الإدراك شيء زائد على الرؤية ، فنحن نرى السماء ولكن لا ندركها ، ولا نراها كلَّها بأبصارنا ، بل لا نرى منها إلا ما يقابلنا ، فنحن نراها ولكن لا ندركها .

وقد أطال العلماء في الجواب عن هذه الآية التي يستدلُّ بها المعتزلة على نفي الرؤية .

* * *

« **ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة :٢٢، ٢٣]** » .

إثباتُ الرؤيةِ إثباتٌ حقيقي عند أهل السنة ، ومن أوضح الأدلة على ذلك قوله تعالى في سورة القيامة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، فقوله: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ أي : من النضارة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ [الإنسان : ١١] أي: بهاءً وزينة وجمالاً ، وقولُه : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أي : من النَّظر الذي هو المعاينة ، ومنه قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ [ق :٦] .

وهذه الآية من سورة القيامة ؛ من أوضحِ الأدلة في إثبات الرؤية .

وقد ذكر ابنُ القيم رحمه الله سبعَ آياتٍ في « حادي الأرواح »[1] دالة على

---

(١) (٢ / ٦٠٥) في الباب الخامس والستين : في رؤية أهل الجنة ربَّهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة . قال رحمه الله في أوَّله : « هذا الباب أشرف أبواب الكتاب وأجلُّها قدراً وأعلاها خطراً وأقرُّها لعيون أهل السنة والجماعة، وأشدُّها على أهل البدعة والفرقة ... إذا ناله أهل الجنة نَسُوا=

إثبات الرؤية .

أولها : قصة موسى عليه السلام ، فإنه طلب الرؤية وقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف :١٤٣] .

وهذه الآية من أكثر ما يستدل به المعتزلة على نفي الرؤية ، فيقولون : إن قوله : ﴿لَن تَرَىٰنِي ﴾ يفيد عدم الرؤية ، وأنه سبحانه لا يُرى بحال .

وأجاب رحمه الله بقوله : هل أنتم أعلم من موسى ؟ حيث سألها ربَّه ، ولو كانت مستحيلة لما خفي الحكم على موسى الذي هو نبيُّ الله وكليمُه ، فكيف تكونون أعلم من أنبياء الله ورسله ؟ فهذا تنقُّصٌ للرسل ، ومقتضى كلامِكم هذا ؛ أن موسى مشبِّه .

ثم يقول رحمه الله : إن الله لم يعاتب موسى حين طلب الرؤية ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لعاتبه ، كما عاتب نوحاً حين قال : ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود :٤٥] ، فقال الله عز وجل معاتباً نبيَّه نوحاً عليه السلام : ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود :٤٦] ، فلمَّا لم يعاتِبْ موسى ؛ دلَّ على أنه ما سأل إلا شيئاً ممكناً .

وقد أطال ابن القيم في مثل هذه الآيات وبيان دلالاتها .

فالمؤمنون يرون ربَّهم ؛ كما دلَّت على ذلك الآيات ، وكذلك الأحاديث

= ما هم فيه من النعيم ، وحرمانُه والحجابُ عنه لأهل الجحيم ؛ أشدُّ عليهم من عذاب الجحيم» . اهـ .

كقولـه ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هـذا القمـر » ، وهـذا حـديثٌ في الـصحيحين[1] ، رواه جرير بـن عبـدالله رضي الله عنـه ، وهـو مـن أجـلاء الصحابة ، ورواه عن جرير ؛ قيسُ بنُ أبي حازم ، ورواه عن قيس ؛ إسماعيلُ ابنُ أبي خالد ، وجماعةٌ آخرون رووه عن قيس مع إسماعيل ، ثـم إنـه اشـتهر عن إسماعيل فرواه عنه خلقٌ كثير . سرد منهم ابنُ القيم رحمه الله مائة رجلٍ أو أكثر ، ثم قال رحمـه الله بعـد ذلـك : « فكأنـك تـسمع رسـول الله ﷺ وهـو يقوله ويبلِّغه لأمته »[2] .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى لا مِثْلَ لـه ؛ لكمال صفاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى :١١] » .

هذه بعضُ آيةٍ ردَّ الله بها على الطائفتين ، فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ ؛ ردٌّ على الممثلة الذين يقولون: إن صفات الله كصفاتنا .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ؛ ردٌّ على المعطلة النفاة ، الذين يقولون : ليس لله سمع ولا بصر .

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، بابُ قولِ الله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٧٤٣٤) ، ومسلم في كتاب المساجد ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٣) .

(٢) حادي الأرواح (٢/ ٦٣٧) .

« ونؤمن بأنه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة :٢٥٥] لكمال حياته وقيوميته » .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، فيه نفيٌ للنقائص؛ لأن النومَ والسِّنَةَ نقص ، والله تعالى منزَّه عن ذلك لكمال حياته وقَيُّومِيَّتِه .

* * *

« ونؤمن بأنه لا يظلم أحداً لكمال عدله ، وبأنه ليس بغافل عن أعمال عباده لكمال رقابته وإحاطته » .

مصداقُ ذلك قولُه تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف :٤٩] ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء :٤٠] ، وذلك لكمال عدله فإنه أعدل وأحكم ، ومِنْ عدله أنه لا يظلم أحداً .

وهو سبحانه ليس بغافل ، مصداق ذلك في مواضع كثيرة من القرآن ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥، ١٤٠، ١٤٩، آل عمران : ٩٩] ، وقوله عز شأنه : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣، والنمل : ٩٣] ، فهو سبحانه لا يغفل عن عباده ، ولا ينساهم ؛ لكمال رقابته وإحاطته ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق :١٢] .

* * *

« ونؤمن بأنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس :٨٢]» .

فهو الله عز وجل الذي لا يعجزه شيء ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر :٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ، فكلمة: ﴿ كُن ﴾ يأمر الله بها ما يريد أن يكون ، ومن هذه الكلمة خَلَقَ الله المخلوقات : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران :٥٩] ، فالله تعالى خلق آدمَ وقال له : ﴿ كُن ﴾، وكذلك عيسى ، وكذلك سائر الموجودات .

* * *

«وبأنه لا يلحقه تعب ولا إعياء لكمال قوته ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق :٣٨] أي من تعب ولا إعياء » .

الله عز وجل لا يَلْحَقُه عَجْزٌ ولا تعبٌ ولا إعياءٌ لكمال قوته وقدرته .

ذُكِر في سبب نزول هذه الآية ؛ أن اليهود جاؤوا لرسول ﷺ يسألونه عن خلق السماوات والأرض ، فقال : «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ...» إلى قوله : «وخلق يوم الجمعة النجومَ

والشمسَ والقمرَ والملائكةَ ...»، إلى أنْ قالوا : قد أصبت لو أتممت ، فغضب عليه الصلاة والسلام[1] . وذلك لأنهم يقولون : إن الله انتهى من الخلق يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، لذا كانوا يجعلون يومَ عُطَلِهم يومَ السبت ، فكذّبهم الله بهذه الآية ، وبيَّن لهم رسول الله ﷺ أن الله تعالى لا يلحقه تعبٌ ولا إعياءٌ ولا نَصَبٌ ولا سآمة ، قال تعالى في سورة (ق) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ .

* * *

« ونؤمن بثبوت كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات » .

أي : لا نَصِفُ الله إلا بما وصف به نفسه ، أو بما وصفه به نبيُّه ﷺ ، فإن الله أعلم بنفسه، ورسلَه - عليهم الصلاة والسلام - أعلم بمن أرسلهم؛ فنقتصر على ما جاء في الكتاب والسنة ، ونصدِّقُ ذلكَ ونقول : إن الله تعالى أعلم بنفسه ، وكلُّ ما جاءنا في القرآن الذي هو كلام الله تعالى نقبله ، ولا نردُّ منه شيئاً، حتى لا نكون من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢١/ ٤٦٥) ، وأبوالشيخ في العظمة (٤/ ١٣٦٣) ، والحاكم في المستدرك (٣٩٩٧) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وأبوجعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ (٨١٩) ، وتعقبه الذهبي بقوله : « أبوسعيد البقال قال ابن معين : لا يكتب حديثه » ، وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٣ ، ٩٤) عند الآيتين (٩، ١٠) من سورة (فصلت) وقال: « فيه غرابة » .

ببعض ، بل نؤمن به جميعاً .

وكذلك الصفات التي وردت في الأحاديث الصحيحة نقبلها ونثبتها .

وقد ذكر أهل العلم أن ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الصفات ؛ فإنه ينقسِمُ إلى قسمين : صفات ذاتية ، وصفات فعلية .

فالصفات الذاتية ؛ هي صفات الذات ، والتي يتَّصِفُ الله بها دائماً .

والصفات الفعلية ؛ هي التي يفعلها سبحانه إذا شاء .

وحيث إن المعتزلة ينكرون جميع الصفات ، فإنهم يوردون بعضَ الشُّبَه . فيقولون مثلاً : إن الصفات الذاتية إذا أثبتناها ؛ أثبتنا تعدُّدَ القدماء. فإن أخصَّ صفات الله: القِدَم ، فهو سبحانه قديم لم يُسبق بعدم ، وهذه أخص الصفات .

فإذا أثبتنا الصفات الذاتية ؛ لم يكن القِدمُ للذَّات ، بل : تعدَّد القدماء ، وتعدَّد الذين يُطْلق عليهم وصفُ القديم ، فإنه قد يقال : الله قديم ، ووجهه قديم ، وسمعه قديم ، وبصره قديم ، ويده قديمة ، فلا يكون القديم واحداً بل قد تعدد القدماء ، فهذه شبهتهم[1] .

ونحن نقول : إنكم تعترفون بأن لله سبحانه ذاتاً ، والذات تتبعها

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٦٣) ، والصفدية (٢/ ٢٢٧-٢٢٨) ، والتدمرية (ص/ ١١٧-١١٨) ، ومنهاج السنة (١/ ٤١٩- ٤٢٧) ، ودرء التعارض (٣/ ١٨ ، ٢٤٨) ، والتسعينيَّة (٢/ ٤٠٧-٤٠٨، ٧١٤) .

الصفات، فإذا قلنا : إن الله قديم ، فقد دخلت صفاته في ذاته .

كذلك صفاتُ المخلوق ، فإنها تابعةٌ لذاته ، وليست شيئاً زائداً على الذات .

فإنك تقول مثلاً : جاءني زيد . فَيُفْهَمُ من قولك هذا ؛ أن زيداً جاء بصفاته ؛ فلا حاجة إلى أن تقول : جاءني زيدٌ ورأسُه ويدُه ورجلُه وسمعُه وبصرُه وعينُه ، بل لا حاجة إلى ذلك ؛ لأنه شخص واحد ، وهو زيد بجميع صفاته، فعُرِفَ أن الصفات من الذات ، فإذا أثبتنا الذات تَبِعَتْها الصفات ، فصفات الله الذاتية من جملة ذاته سبحانه ؛ كما أن صفات الإنسان الذاتية من جملة ذاته .

وأما الصفات الفعلية ؛ فإنه سبحانه يفعلها إذا شاء ، ولا تكون ملازمة له دائماً، فلا يقال : إنه سبحانه غضبان دائماً، ولا إنه يكره دائماً، ولا يقال : إنه يحب دائماً ، أو يبغض دائماً ، أو يرحـم دائماً ، أو يَعْجَبُ دائماً ، أو يضحك دائماً .

بل نقول : هذه أفعال يفعلها سبحانه إذا شاء كما يشاء .

* * *

« لكننا نتبرأ من محذورين عظيمين هما : التمثيـل : أن يقول بقلبه أو لسانه : صفات الله تعالى كصفات المخلوقين » .

إذا مَثَّل الإنسان صفات الله تعالى بصفات المخلوقين ، أو قال بقلبه أو بلسانه : إن لله يداً كأيدينا ، أو إن لله رِجْلاً كأرجلنا ، أو إن لله عيناً كأعيننا ؛ فإن هذا هو التمثيل، والتمثيل كفر .

وعلى هذا ؛ يحرم على العبد أن يقولَ عن الله : إنه مثْلُ خلقِه ، لا بالقلب ولا باللسان ، لا في ذاته سبحانه ولا في صفاته .

* * *

« والتكييف : أن يقول بقلبه أو لسانه : كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا » .

وممَّا نتبرَّأ منه : التكييف ، كأن يُقال : كيفية صفة الله كذا وكذا ، أو أن يسأل أحدٌ فيقول : ما كيفية الاستواء ؟ وما كيفية النزول ؟ وما كيفية اليد ؟ ونحو ذلك .

فنتوقَّفُ عن الكيفيَّة ، إذ الكيف مجهول ، فلا يجوز أن يقول الإنسان بقلبه أو لسانه : كيف صفات الله تعالى؟ أو أن يَصِفَ كيفيَّتَها فيقول : كيفيتها كذا وكذا .

* * *

« ونؤمن بانتفاء كل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ ، وأن ذلك النفي يتضمن إثباتاً لكمال ضده ، ونسكت عما سكت الله عنه ورسوله » .

أنكر أهلُ السنة على المعتزلة وصفَهم الدائمَ بالسلب ، فإن المعتزلة يصفون الله بالنفي لا بالإثبات ، ولهذا لمَّا ناظر عبدُالعزيز الكناني بشرَ بنَ غياث المريسي ؛ قال له : هل تُثْبِتُ أن الله يعلم ؟ فامتنع بشرٌ ، وقال : بل إن

الله لا يجهل ؛ لأنهم يثبتون الصفات السلبية ، فقال الكناني : أنا أقول إن هذه الإسطوانة لا تجهل فأثبت لنا العلم[1] ، فالنفي ليس بكمال ؛ إنما الكمال في العلم والإثبات ، فكلُّ نفي في القرآن ؛ فإنه يتضمَّن إثبات كمال .

قال تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] أليس هذا نفياً ؟ بلى ، إنه نفيٌ دالٌّ على إثباتِ القيُّوميَّةِ والحياةِ الكاملتين .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ ﴾ [فاطر :٤٤] أليس هذا نفياً ؟ بلى ، إنه نفيٌ دالٌّ على إثبات القوة والقدرة ، فإذا كان الله عز وجل لا يعجزه شيء ؛ فهو دليلٌ على كمال قدرته .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى :١١] أليس هذا نفياً؟ بلى ، إنه نفيٌ دالٌّ على إثبات الانفراد بصفات الكمال لله تعالى ، وصفاتُ المخلوقين ناقصة يعتريها التغيُّر .

وقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم :٦٥] نفيٌ دالٌّ على إثبات الوحدانية له سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص :٣] نفيٌ فيه إثبات الوحدانية لله تعالى .

فدلَّ كلُّ ذلك ؛ على أن كلَّ نفيٍ فيه إثباتٌ لضدِّه ، ولذلك قال الشيخ رحمه الله : « وأن ذلك النفي يتضمن إثباتاً لكمال ضده » .

---

(١) انظر : كتاب الحيدة للكناني (ص/ ٥٥) ، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢١٣).

وقد تكلَّم شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته « التدمرية »[1] على ما في القرآن من الصفات السلبية ، وبيَّن أنها لا تكون مدحاً إلا إذا دلَّتْ على إثبات ضدها ؛ لأن النفي المحض لا يُمْدَحُ به .

من ذلك قوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام :١٠٣] ، فقال رحمه الله : إن هذا نفي ، وإن الله تعالى يتمدَّح به ، ولو كان لنفي الرؤية ما مدح الله به نفسه ، إذ لو كان في نفي الرؤية مدحٌ ؛ لكان المعدومُ ممدوحاً لأن المعدوم لا يُرى ، وعلى هذا يكونُ معنى قولِه تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي : لا تحيط به ، فكما أنه سبحانه إذا عُلِم ، لا يحاط به علماً ؛ فكذلك إذا رُئيَ لا يحاط به رؤية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه :١١٠] ، فهذا نفيٌ يتضمَّن المدح ، وهو أن الله تعالى محيطٌ بعباده علماً .

قال الشيخ رحمه الله : « ونسكت عما سكت الله عنه ورسوله » ، فالصفات التي لم تَرِدْ بها الأدلةُ لا نتكلَّف في إثباتها ولا في نفيها .

* * *

---

(١) (ص/ ٥٧) .

وانظر : الفتاوى (١٠/ ٢٥٠ ،١٧/ ١٠٩) ، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٥٤) ، والجواب الصحيح (٢/ ٥٤٢-٥٤٣) ، ومنهاج السنة (٢/ ٢٦) ، وحادي الأرواح (٢/ ٦١٨) ، والصواعق المرسلة (٣/ ١٠١٩ وما بعدها ، ٤/ ١٤٥٢) ، وبدائع الفوائد (١/ ٢٨٠- ٢٨٤) .

« ونرى أن السير على هذا الطريق فرض لابد منه ، وذلك لأن ما أثبته الله لنفسه أو نفاه عنها سبحانه فهو خبرٌ أخبر الله به عن نفسه ، وهو سبحانه أعلم بنفسه وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً ، والعباد لا يحيطون به علماً » .

مقصود الشيخ رحمه الله تعالى بقوله : «السير على هذا الطريق فرض» هو ما ذكره في الفقرة السابقة من النفي والإثبات ، ففرضٌ علينا أن لا نتكلَّف في الشيء المسكوت عنه ، ولا نحرِّف الشيء الذي أثبته الله ؛ لأن ما أثبته الله لنفسه أو نفاه عنه سبحانه فهو خبرٌ من الله تعالى عن نفسه ، وهو سبحانه أعلم بنفسه وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً ، فإذا وصف الله تعالى نفسه بصفاتٍ أثبتناها ، وقلنا : إنها صفات كمال ولا نعطِّلُها ؛ لأنها خبرٌ من الذي لا يُخْبِرُ إلا بما هو حقيقة ، وهو الله سبحانه وتعالى.

* * *

« وما أثبته له رسوله أو نفاه عنه فهو خبرٌ أخبر به عنه ، وهو أعلم الناس بربِّه وأنصح الخلق وأصدقهم وأفصحهم » .

الأحاديث التي فيها إثباتٌ أو نفيٌ كثيرة ، فإذا مرَّ بنا نفيٌ نثبته ، وكذلك نثبت ضده ، فإذا أخبر النبي ﷺ بأن الله لا ينام ؛ فإن ذلك لكمال حياته وكمال قيامه على خلقه .

وما أثبته النبي ﷺ لله عز وجل ؛ فهو خبرٌ نقبله ونصدِّقه ونؤمن به ، فهو ﷺ

أعلم الناس بربه ، وأنصحهم وأفصحهم وأصدقهم ، ومَنْ اجتمعت فيه هذه الخصال ؛ لا يمكن أن يدَّخر شيئاً عن أمته ، بل لابد أن يبيِّن لهم ما عَلِمَه.

* * *

« ففي كلام الله تعالى ورسوله ﷺ كمال العلم والصدق والبيان ؛ فلا عذر في ردِّه أو التردد في قبوله » .

فنحن إذا تتبعنا كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ؛ فإنا نشهد بصدقه ، وأنَّه حقٌّ كلُّه ، ولا عذرَ لأحدٍ في ردِّه ، ولا عذرَ لأحدٍ في التردُّدِ فيه ؛ بل نقبله ونستيقن أنه من الله ، وكل ما كان من الله فإنه حق .

* * *

فصـــل

« وكل ما ذكرناه من صفات الله تعالى تفصيلاً أو إجمالاً ، إثباتاً أو نفياً ؛ فإننا في ذلك على كتاب ربِّنا وسنة نبينا معتمدون ، وعلى ما سار عليه سلف الأمة وأئمة الهدى من بعدهم سائرون » .

فدليلُنا في النفي والإثبات الآياتُ والأحـاديث الصحيحة ، فلا نثبتُ شيئاً من صفات الله عز وجل ؛ إلا بدليل من الآيات والأحاديث الصحيحة ، وكذلك لا يجوز نفي شيء من صفات الله عز وجل ؛ إلا بدليل من الآيات والأحاديث الصحيحة[1] ، إذْ نحن سائرون على ما سار عليه سلف الأمة الصالح كالصحابة والتابعين وعلمائهم والأئمة الأربعة ومن تبعهم بإحسان الذين لم يردُّوا شيئاً من هذه الأدلة ، بل لم يثبُت عن واحد منهم أنه تأول صفة من الصفات أو أنكرها، فنحن على ما ساروا عليه سائرون .

* * *

« ونـرى وجـوب إجـراء نـصوص الكتـاب والـسنة في ذلـك عـلى ظاهرها، وحملها على حقيقتها اللائقة بالله عز وجل » .

فنحن أهل السنة نؤمن بأن نصوص الكتاب والسنة على ظاهرها ، وأن ظاهرها مراد ، وأن تلك النصوص كلامٌ مفهوم ، إذ لا يمكن أن يكلمنا الله

---

(١) انظـر : التدمريـة (ص/ ٥٧) ، وتنبيـه الرجـل العاقـل (٢/ ٦٢٠) ، ومنهـاج الـسنة النبويـة (٢/ ١٧٤) ، والتسعينيَّة (١/ ١٥٧، ٢/ ٧١٣، ٣/ ٨٩٩) .

بكلامٍ لا يظهر لنا معناه .

فنثبت مثلاً صفة الاستواء ، ونقول : إنها صفةٌ حقيقيةٌ ؛ نُثبتها كما يليق بالله عز وجل، ونقول مثل ذلك في النزول والمجيء وغيرها .

ونثبت صفة الوجه واليد كما أثبتها الله ، ونشهد أنها حقيقةٌ لائقةٌ به سبحانه ، ولا نردُّها ، ولا نكذِّب بشيء ممَّا دلَّتْ عليه نصوص الكتاب والسنة، بل نَحْمِلُها على حقيقتها التي تليق بالله عز وجل .

* * *

« ونتبرَّأ من طريق المحرِّفين لها الذين صرفوها إلى غير ما أراد الله بها ورسوله » .

التحريف هو : تغيير الكلام ، وينقسم إلى قسمين : تحريف اللفظ ، وتحريف المعنى .

فتحريفُ اللفظ ؛ كقول الذين قالوا : (معنى استوى : استولى) ، ومثل الذين قرؤوا : (وكلَّم اللهَ موسى تكليماً) ، فهؤلاء حرَّفوا الكلمةَ ، وغيَّروا فيها، أو زادوا عليها ، أو نقصوا منها .

أما تحريف المعنى ؛ فهو كالذي وقع فيه هؤلاء المعطلة الذين يحرِّفون المعاني ، ويحملون الألفاظ على معانٍ بعيدة بلا دليل ، كأن يتكلَّفوا الإضمار في كلام الله عز وجل ، فيقولوا عند قول لله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر :٢٢] أي : جاء أمره .

وكقولهم عند قول الله عز وجل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك :١٦] أي : مَنْ في السماء أمره ، فما الدليل على هذا الإضمار ؟ ولماذا لم يقل سبحانه : (أأمنتم من في السماء أمره) ؟

* * *

« ومن طريق المعطِّلين لها الذين عطّلوها عن مدلولها الذي أراده الله ورسوله » .

فكما أن هناك محرّفين يحرفون الألفاظ عن دلالاتها ؛ فهناك أيضاً من ينفي الدلالة ويعطِّلها ، أو يحملها على محامل بعيدة .

* * *

«ومن طريق الغالين فيها الذين حملوها على التمثيل أو تكلفوا لمدلولها التكييف » .

وطريق الغالين هو طريق الممثلة والمشبهة الذين غلوا في الإثبات ، ويقابلهم المعتزلة الذين غلوا في النفي .

ونحن نتبرأ من طريق هؤلاء المشبهة ومن مقولتهم ، فهم يقولون : إن صفات الله كصفاتنا ، فلا نعلم عيناً إلا العين المعروفة ، ولا نعرف يداً إلا اليد المعروفة ، وهكذا في كل الصفات ، وهذا كله خطأٌ ظاهر ، وضلالٌ بيِّن.

* * *

« ونعلم علم اليقين أن ما جاء في كتاب الله تعالى أو سنة نبيِّه ﷺ فهو

حق لا يناقض بعضه بعضاً لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء :٨٢] ، ولأن التناقض في الأخبار يستلزم تكذيب بعضها بعضاً ، وهذا محال في خبر الله تعالى ورسوله ﷺ» .

كتابُ الله تعالى وسنةُ رسولِه ﷺ كلاهما وحْيٌ مُنَزَّلٌ من الله تعالى[1] ، فلا يمكن أن يكون بينهما اختلاف ، فهي حقائق لا يناقض بعضُها بعضاً ، ولا يكذِّب بعضُها بعضاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء :٨٢] .

* * *

«ومن ادَّعى أن في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله ﷺ أو بينهما تناقضاً فذلك لسوء قصده وزيغ قلبه؛ فليتب إلى الله تعالى ولينزع عن غيِّه».

مَنْ ادَّعى أن بين الآيات أو الأحاديث تناقضاً ، كمَنْ يدَّعي التناقض بين أحاديث الصفات ؛ فإن هذه المقالة تدلُّ على فهمٍ سيء ، أو قصدٍ سيء .

والواجب في حق أولئك أن يتوبوا إلى الله ، وعلى من عرف حالهم أن يدعوهم للتوبة والرجوع إلى الله تعالى ، حتى يَخْرُجُوا من غواياتهم .

والغيُّ : ضد الرشد ، قال الله تعالى : ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، والرشد هو الصلاح والاستقامة .

* * *

---

(١) انظر للاستزادة : التأصيل (١/ ٦،٥) للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله .

« ومن توهم التناقض في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله ﷺ أو بينهما، فذلك إما لقلة علمه أو قصور فهمه أو تقصيره في التدبر ، فليبحث عن العلم وليجتهد في التدبر حتى يتبين له الحق ، فإن لم يتبيَّن له فليكلْ الأمر إلى عالمه ، وليكفَّ عن توهمه ، وليقلْ كما يقول الراسخون في العلم : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران :٧] وليعلم أن الكتاب والسنة لا تناقض فيهما ولا بينهما ولا اختلاف » .

مَنْ قال : إن الأحاديثَ تُناقِضُ الآيات مع صحةِ كلٍّ منهما ؛ فهذا لم يؤتَ إلا من قلة علمه ، فإنه لم يعلم أن كلام الله يصدِّق بعضُه بعضاً ، أو أنه قد أُتي من قصور فهمه ، فلم يفهم من تلك النصوص مرادَ الله .

وقد أرشَدَنا الله تعالى ، ووضَّح لنا طريقَ الفهمِ للنصوص ، فأمر سبحانه وتعالى بالتدبر ، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد :٢٤]، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص : ٢٩] ، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون :٦٨] ، فأخبر الله تعالى في هذه الآيات وفي غيرها ؛ أن العباد مأمورون بتدبر القرآن حتى يعقلوه، وقد بيَّن العلماء رحمهم الله كلَّ ما يتعلق بهذا القرآن ، فشرحوه في تفاسيرهم ، وبيَّنوا حِكَمَه وأحْكامَه في العلوم المفردة الأخرى .

يقول الشيخ رحمه الله مرشداً للطالبين : « فليبحث عن العلم وليجتهد في التدبُّر » ، فلو قال رجل : إني ما فهمت إلا هذا التناقض ؛ فنقول له : إنك لم تُؤتَ إلا من سوء فهمك ، ابحث عن العلم الصحيح ، واجتهد في التدبر، حتى يتبيّن لك الحق ، وإذا لم يتبين لك فإياك أن تتدخل فيما لا تحْسِنُه ، أو

تدّعي أن القرآن فيه اختلاف كثير ، بل عليك أن تَكِلَ الأمر إلى عالمه وهو الله ، وأن تكف عن توهماتك وخيالاتك ، وقل مثل ما قال الراسخون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

* * *

فصـــل

« ونؤمن بملائكة الله تعالى وأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء :٢٦، ٢٧] » .

ذكر الشيخ رحمه الله في هذا الفصل الإيمانَ بالملائكة . وقد عدَّ النبيُّ ﷺ الإيمانَ بالملائكة ركناً من أركان الإيمان ، والإيمانُ بهم إيمانٌ بالغيب ؛ لأنهم غائبون عن أبصارنا ، وقد قال الله تعالى : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ..﴾ [البقرة :٢-٣] أي : يؤمنون بكل ما غاب عنهم ، ودلّتْهم عليه رسلُهم ؛ لأن المخبر صادق .

وفي هذا الفصل نجد أنّ الشيخ رحمه الله قد فصَّل الحديث في الإيمان بالملائكة ، والناظر في كتب العقائد يجد أن مؤلفيها لا يفصّلون ـ غالباً ـ في الإيمان بالملائكة ، كما في العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فإنه لم يُفَصِّل في الإيمان بالملائكة ، ولا الإيمان بالرسل ، ولعل السبب قلة الخلاف، فلم يكن هناك خلاف بين الأمة في إثبات الملائكة أو إثبات الرسل أو إثبات الكتب ، فاحتاج حينئذ إلى التفصيل في المسائل التي كَثُرَ فيها الخلاف ؛ كالأسماء والصفات ، والقضاء والقدر ، وأحكام الإيمان، والكلام عن القرآن ، والإيمان باليوم الآخر .

وقد وَصَفَ الله تعالى ملائكته بصفاتٍ كثيرة ، منها ما جاء في آية سورة الأنبياء، قال الله تعالى ردّاً على المشركين الذين يدَّعُون أن الملائكة بنات

الله : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء :٢٦-٢٩] أي : لو أن أحداً من الملائكة ادّعى أنه إله ؛ فإنه يكفر ، وقد نُهوا عن ذلك .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي : بل خَلَقَ اللهُ الملائكةَ عباداً مكرمين . ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي : يعملون ويمتثلون لأمر الله ولا يعصونه .

وقد وصف الله تعالى ملائكته في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء :١٩-٢٠] ، ومنها قوله تعالى في وصف خزنة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم :٦] .

وصفات الملائكة في القرآن والسنة كثيرة ، والخلاف في الملائكة لا يكون إلا مع الفلاسفة ، وأما فِرَقُ الأمة فإنهم مُقِرُّون بهم .

* * *

«خلقهم الله تعالى من نور فقاموا بعبادته وانقادوا لطاعته ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء :١٩-٢٠] » .

جاء في حديثٍ في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **خُلقت الملائكة من نور ، وخُلقت الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم** »[1] .

فمِنْ هذا يُعْلَم ؛ أن الله قد خلق الملائكة من نور ، وجعلهم أرواحاً بلا أجساد ، ولأجل ذلك لا نراهم، ولكنَّ الله أعطاهم قدرة يتشكَّلون بها فيظهرون في أشكالٍ وصور .

وكذلك أيضاً أُمَّة الجان ، فالجن أرواحٌ بلا أجساد ، فلأجل ذلك يتشكَّلون ، وكذلك الشياطين أرواح بلا أجساد ، أما الإنسان فإنه روح وجسد ، فالجسدُ مكوَّنٌ من لحم ودم وعظم وأعضاء ، وأما الروح فهي التي يَحيَى بها الجسد .

وقد فسّرها ابنُ القيم رحمه الله في كتاب « الروح »[2] ؛ أنها جسم خفيف شفاف علوي نوراني حي متحرك ، يَسْرِي في الجسد كما تسري النار في الفحم ، وكما يسري الدهن في الزيتون ؛ ما دام هذا الجسد قابلاً لتلك الروح التي تعمره ، فإذا أَذِنَ الله بخراب ذلك الجسد ؛ خَرَجَتْ منه هذه الروح ، وبقيَ جُثَّةً لا حراك بها .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ، بابٌ في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦) .

(٢) (ص/ ٤٢٢) في المسألة التاسعة عشرة . وانظر : التدمرية (ص/ ٥٠-٥٧) ، والفتاوى (٤/ ٢١٦ وما بعدها ، ٩/ ٢٨٩ وما بعدها) ، والرد على الشاذلي (ص/ ١٢٢ وما بعدها) ، وشرح الأصبهانيَّة (ص/ ٣٢٣، ٣٦٣) ، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٥٩٧) .

أما المتكلِّمون ؛ فقد اختلفوا في الروح اختلافاً كثيراً ، وقد أفاض ابنُ القيم رحمه الله في كتابه « الروح » ، وتوسَّع في وَصْفِها ، وذِكْرِ خصائصها .

ومن المعلوم أن الملائكة أرواحٌ ، والجنَّ أرواحٌ ، والشياطينَ أرواحٌ ؛ إلا أن الملائكةَ أرواحٌ خيِّرة ، والشياطينَ أرواحٌ شريرة ، والجنَّ أرواحٌ فيها خير وفيها شر .

أما الإنس فأرواح وأجساد ، وفيهم الصالح وفيهم الفاسد .

* * *

« حجبهم الله عنا فلا نراهم ، وربما كشفهم لبعض عباده ، فقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق[1] ، وتمثل جبريل لمريم بشراً سوياً فخاطبته وخاطبها ، وأتى إلى النبي ﷺ وعنده الصحابة بصورة رجل لا يُعرف ولا يُرى عليه أثر السفر ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ ، ووضع كفيه على فخذيه ، وخاطب النبي ﷺ ، وخاطبه النبي ﷺ ، وأخبر النبي ﷺ أصحابه أنه جبريل »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، بابٌ إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣٢) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (١٧٤) .

(٢) تقدم تخريجه (ص/ ٢٢) .

حجب الله الملائكة عن عباده فلا يرونهم ، وكذلك حجب الشياطين ، قال الله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف :٢٧] ، ومعنى ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ : أي شكله وأمثاله ، كالملائكة والجن ، فإنهم يرونكم وأنتم لا ترونهم ؛ لأنهم أرواح ، والأرواح يخرقها البصر إذا لم تكن في أجساد .

فالملائكة قد يتشكَّلون في صور ، وقد يظهرون لبعض العباد ، كما رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عليه السلام على صورته قد سدَّ الأفق من الجانب إلى الجانب .

وقوله رحمه الله : « **وتمثل جبريل لمريم بشراً سوياً فخاطبته وخاطبها** » يدلُّ لذلك قولُ الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم :١٧] ، ولمَّا رأته ظنته بشراً ، واستعاذت منه ، وقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم :١٨] .

وكذلك قوله رحمه الله : «**أتى إلى النبي ﷺ بصورة رجل لا يعرف ولا يرى عليه أثر السفر**» ، فليس هو من أهل البلاد البعيدة ، وإلا لظهرت عليه آثار السفر ، وليس هو من أهل المدينة ؛ إذْ لم يعرفوه .

وقد وصفه عمر رضي الله عنه بأنه شديد بياض الثياب ، وشديد سواد الشعر ، وذلك غاية الفتوة .

قوله : « فجلس .. » ؛ فيه بيانُ جِلْسَةِ المتعلِّم وبيانُ صفتها ، فقد أسند ركبتيه وألصقها بركبتي النبي ﷺ ، ووضع كفيه على فخذيه ، كما في التشهد ، أي: إنه جلس مُفترشاً كجلوسه بين السجدتين، معلِّماً لهم هيئة الجلوس وهيئة التعلُّم.

وقد أخبر النبي ﷺ الصحابة أنه جبريل ، أتاهم يعلمهم دينهم . فمِمَّا يدل عليه هذا الحديث العظيم ؛ أن الملائكة يظهرون في صورة البشر .

* * *

« ونؤمن بأن للملائكة أعمالاً كلفوا بها ، فمنهم جبريل الموكل بالوحي ، ينزل به من عند الله على من يشاء من أنبيائه ورسله » .

جاء في حديثٍ أنه ﷺ قال : **« أطَّت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله »**[1] .

والأطيط : صوت الرَّحْل على البعير ، فإذا كان الرَّحْلُ ثقيلاً ؛ سُمِع له صوتٌ من ثِقَل أحمالِها .

فالسماء من ثِقَلِها بالملائكة ؛ يُسمع لها أطيط ، وحُقّ لها أن تئط .

وللملائكة أعمال كثيرة ، فمنهم جبريل عليه السلام الذي وكَّله الله بالوحي الذي ينزل به على الأنبياء بإذن الله ، وله أعمال أخرى كالعبادة .

* * *

« ومنهم ميكائيل : الموكل بالمطر والنبات » .

وقد جاء ذكر جبريل وميكال في بعض آيات القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ، باب ما جاء في قول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً » (٢٣١٢) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء (٤١٩٠) .

لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة :٩٨] ، وقرأها بعضهم ميكائيل وهي قراءة مشهورة[(١)] ، وكذا جبريل ، فقد قرأها بعضهم : ﴿من كان عدواً لجَبْرَائيل ..﴾ [(٢)] .

وكذا قرؤوا ﴿جبرائيل﴾ في قول الله تعالى : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ﴾ [التحريم :٤] .

وقد أوكل الله تعالى لميكائيل عليه السلام إنزالَ القطرِ من السماء وتصريفَه بإذن الله .

* * *

«ومنهم إسرافيل : الموكل بالنفخ في الصور حين الصعق والنشور».

جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « **كيف أنعم وصاحب القرن قد**

---

(١) قرأ بها ابنُ عامر وابن كثير وحمزة والكسائي : (ميكائيل) بياء بعد الهمزة ، وقرأ أبوعمرو وحفص وعاصم : (ميكال) بحذف الياء والهمزة .

انظر : جامع البيان لأبي عمرو الداني (٢/ ٨٨٠) ، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٠٩) ، والتفسير المحيط لأبي حيان (١/ ٤٨٦) .

(٢) قرأ بها ابنُ عباس وعكرمة : (جَبْرَائِيل) ، وقرأ ابن عامر وأبوعمرو ونافع وحفص بكسر الجيم والراء من غير همز : (جِبْرِيل) . وفيه لغاتٌ أخرى ؛ بلغت ثلاث عشرة لغة .

انظر : جامع البيان لأبي عمرو الداني (٢/ ٨٧٨) ، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٠٦) ، والتفسير المحيط لأبي حيان (١/ ٤٨٦) .

التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يُؤمر »[1] .

والصُّوْر : قَرن كبير ، قيل : إن فيه ثقوباً بعدد أنفس بني آدم .

فيأمره الله بالنفخ ، فينفخ نفخةَ الصَّعْق ، كما قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر :٦٨] .

والنفخة الأخيرة هي نفخة البعث والنشور .

* * *

« ومنهم ملَك الموت : الموكل بقبض الأرواح عند الموت » .

قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة : ١١] ، وله أيضاً أعوان ، يقول الله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام :٦١].

فمَلَك الموت يُخْرِجُ الروح ، والملائكة الآخرون يجعلونها في حَنُوطٍ وأكفان ، كما أن الجسد يجْعَلُ في حَنُوطٍ وأكفان .

وأمَّا تسميتُه : فإنه لم يصح في تسمية ملك الموت شيء ، ولكن قد اشتُهِرَ في تسميته أنه عزرائيل، والصحيح : أنه لم تثبت في ذلك أحاديث صحيحة[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة الزمر (٣٢٤٣) ، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر البعث (٤٢٧٣) ، وقال الترمذي : حديث حسن .

(٢) قال ابن كثير في التفسير (٣/ ٤٦٣) ، والبداية والنهاية (١/ ١٠٦) ما مجموعه : « وأما ملك =

« ومنهم مَلَك الجبال : الموكل بها » .

وقد جاء ذكر ملك الجبال في حديث مجيء النبي ﷺ من الطائف ، لمَّا طرده أهل الطائف ، وسلَّطوا عليه مواليهم وصبيانهم ؛ رَجَعَ مهموماً مغموماً، ولم يَسْتَفِقْ عليه الصلاة والسلام إلا وهو بقرن الثعالب ، فإذا هو ﷺ بسحابةٍ قد أظلَّته ، وإذا فيها جبريلُ عليه السلام ، فناداه وقال : إن الله قد سَمِعَ قولَ قومِك لك وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم ، فناداه مَلَك الجبال فسَلَّم على رسول الله ﷺ ، ثم قال: يا محمد . فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين – أي : الجبلين المحيطين بمكة – فقال النبي ﷺ : « **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يَعبُدُ الله وحده لا يُشرِكُ به شيئاً** »[1] .

* * *

« ومنهم مالك : خازن النار » .

ذُكِرَ مالكٌ وهو خازنُ النارِ في قوله تعالى : ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

= الموت فليس بمصرَّح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح ، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد » . اهـ .

وانظر : الفتاوى لشيخ الإسلام (٤/ ٢٥٩) ، ومفتاح دار السعادة لابن القيم (٣/ ١٨٤) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، بابٌ إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣١) ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥) .

رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] ، وله أعوان وخزنة ، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر :٧١] .

وقد جاءَ ذكرُ عددهم في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر :٢٧-٣٠] .

فقد ذُكر لنا العدد ، ولكن لا يعلم أحدٌ قُوَّتَهم وخَلْقَهم إلا الله .

* * *

« ومنهم ملائكة موكلون بالأجنة في الأرحام ، وآخرون موكلون بحفظ بني آدم ، وآخرون موكلون بكتابة أعمالهم ، لكل شخص ملكَان ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق : ١٧-١٨] » .

يقول النبيُّ ﷺ : **« إن أحدكم يجُمعُ خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم يبعث الله مَلَكاً فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتبْ عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد»**[1] .

وفي الحديث أن الملَك يقول : **« أيْ ربِّ ! نطفةً ، أيْ ربِّ ! علقةً ،**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣) .

أيْ ربِّ ! مضغةٌ ، فإذا أراد الله أن يقضيَ خلْقاً قال: قال الملك: أيْ ربِّ ! ذكرٌ أو أنثى ؟ شقيٌّ أو سعيدٌ ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيُكْتَبُ كذلك في بطن أمِّه»[1] .

والأجنَّة : هي الحمل في الأرحام .

وقوله : « وآخرون موكلون بحفظ بني آدم » ، مصداقُ ذلك قولُ الله تعالى في سورة الرعد : ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد :١١] أي: يحفظونه بأمر ربهم، فإذا جاء القَدَرُ خلوا بينه وبينه.

ومن الملائكة كذلك مَنْ وُكِّلَ بكتابة الأعمال ، ولكل شخص ملَكان ، قال الله تعالى : ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ ، فعن اليمين ملَك الحسنات ، وعن الشمال ملك السيئات ، هذا يكتب إذا عمل حسنة ، وهذا يكتب إذا عمل سيئة، قال تعالى : ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ ﴾ [الانفطار :١٠-١٢] .

* * *

« وآخرون موكلون بسؤال الميت بعد الانتهاء من تسليمه إلى مثواه ، يأتيه مَلَكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيِّه فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحيض ، باب ﴿ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾ (٣١٨) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٦) .

بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم :٢٧] » .

وقد سُمِّيا في بعض الأحاديث بمنكر ونكير[1] ، فيسألانه من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فـ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ .

ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند هذه الآية من سورة إبراهيم[2] : أحاديث عذاب القبر ، وذَكَر أحاديث كثيرة ، طويلة ومختصرة ، وأشهرها حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي رواه أحمد وأهل السنن[3] .

وفيه : أن النبي ﷺ أخبر أنه يأتيه ملكان ، جاء في وصفهم في بعض الروايات : « **أن أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد**

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) ، والترمذي في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر (١٠٧١) ، وابن أبي عاصم في السنة (٨٩٠) ، والآجري في الشريعة (ص/ ٣٧٥) ، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (٨٩) وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٢) التفسير : (٢/ ٥٣١) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٩٥) ، وأبوداود في كتاب السنة ، باب المسألة في القبر (٤٧٥٣) ، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب سورة إبراهيم (٣١٢٠)، والنسائي في كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر (٢٠٥٩) ، وابن ماجه في كتاب ما جاء في الجنائز ، باب ما جاء في الجلوس على المقابر (١٥٤٩) . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

القاصف»[1] ، فيسألونه عن هذه الثلاث ، فكأن الصحابة لمَّا سمعوا ذلك قالوا : من الذي يثبت أمامهم ؟ فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ .

* * *

« ومنهم الملائكة الموكلون بأهل الجنة ﴿ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد :٢٣-٢٤] » .

من الملائكة من وُكِّلَ بأهل الجنة ، فجعل اللهُ بعضَهم خزنةً يكونون عند الأبواب ، قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر :٧٣] .

وجعل اللهُ بعضَهم داخلها ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

* * *

« وقد أخبر النبي ﷺ أن البيت المعمور في السماء يدخله – وفي رواية

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في البعث والنشور (٧) ، والبيهقي في الاعتقاد (ص/ ٢٢٢) ، وابن كثير في مسند الفاروق (١/ ٢٤٠) ، وقال : «حديث مشهور وهو غريب الإسناد» . وأخرجه بسنده البوصيري في إتحاف الخيرة (٢/ ٤٩٢) ، والعراقي في تخريج الإحياء (٥/ ٢٨٥) ، وابن حجر في المطالب العلية (٥/ ٩٧) ، والسيوطي في شرح الصدور (ص/ ١٨٢) من رواية عطاء بن يسار ، وقال العراقي : « مرسل ورجاله ثقات ووصله ابن بطة » .

وانظر : تاريخ دمشق لابن عساكر (١١/ ٥٥) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٣٧) .

يصلي فيه- كل يوم سبعون ألف مَلَك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[1] .

قال النبي ﷺ لمَّا عُرج به إلى السماء السابعة : « فرُفع لي البيت المعمور يصلِّي فيه كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم» ، فيدل هذا الحديث على كثرتهِم ، وأنَّه لا يُحصِيهم إلا الله ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر :٣١].

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الإسراء (١٦٢) .

فصـــل

« ونؤمن بأن الله تعالى أنزل على رسله كتباً حُجَّة على العالمين ومَحجَّة للعاملين يعلِّمونهم بها الحكمة ويزكُّونهم » .

لما ذكر الشيخ رحمه الله الإيمانَ بالملائكة ؛ ذكر بعده الإيمان بالكتب ، كما جاء بهذا الترتيب في حديث جبريل المشهور ، وفي غيره من الآيات والأحاديث .

وقوله رحمه الله : « حُجة على العالمين » أي : برهاناً ودليلاً عليهم ، حتى لا يقولوا : كيف نتعبَّد ؟ أو كيف نعمل ؟

وقوله رحمه الله : « محَجَّة للعاملين » أي : طريقاً لهم ، يتَّبعون سَنَنَه ، ويستَدِلُّون به ، ويعملون بموجبه .

وقد جاءت الرُّسُلُ بالحكمة وتزكية النفوس ، كما في قول الله تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران :٤٨] .

وكما قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة :٢] .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى أنزل مع كل رسول كتاباً لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] » .

ونؤمن بأن الله تعالى أنزل مع كل رسول كتاباً ، وإن لم تُسمَّ لنا تلك الكتب. فالله تعالى لم يسمِّ لنا كتاب نوحٍ ، ولا كتاب هودٍ ، ولا كتاب صالحٍ، ولا كتاب شعيب ، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ولكنَّا نعلم أن كلَّ رسولٍ وكلَّ نبيٍ لابدَّ أن يكون معه حجةٌ وكتابٌ يستدلُّ بها قومه ، ويعملُ بها من يريد العمل .

كما قال الله تعالى في سورة الحديد : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، فأخبر الله تعالى أنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان .

فالميزان هو العدل ، والكتاب هو الذي يُقرأ ويُسْتَدَلُّ به على الحق .

* * *

« ونعلم من هذه الكتب :

أ : التوراة : التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ ، وهي أعظم كتب بني إسرائيل ﴿ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ **[المائدة: ٤٤] »** .

سمَّى اللهُ بعضاً من هذه الكتب التي أنزلها على رسله ، ومنها : التوراة

التي أنزلها على موسى ، وهي أعظم كتب بني إسرائيل وأشهرها ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي : إن النبيين الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام يعملون بما في التوراة .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ معطوفٌ على قوله : ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي : يحكم بها ويتبعها الربانيون ، والربانيون هم العلماء ، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران :٧٩] ، قالوا : الرباني هو العالمُ الفقيه ، وقيل : هو الذي يربيِّ تلاميذَه بصغار المسائل قبل كبارها[1] .

---

(١) قال الإمام البخاري رحمه الله في كتاب العلم : «بابٌ العلم قبل القول والعمل . وقال ابن عباس : ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران :٧٩] : حلماءَ فقهاءَ علماءَ . ويقال : الربَّاني الذي يربيِّ الناس بصغار العلم قبل كباره » . اهـ .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٢١٣) : « وقوله : « وقال ابن عباس » هذا التعليق وصله ابن أبي عاصم أيضاً بإسناد حسن ، والخطيب بإسنادٍ آخر حسن . وقد فسر ابن عباس «الرباني » بأنه الحكيم الفقيه ، ووافقه ابن مسعود فيما رواه إبراهيم الحربي في غريبه عنه بإسناد صحيح » .

فائدة : وقد اخْتُلِفَ في نسبة هذه اللفظة (الربَّاني) ؛ فقيل : نسبةً إلى الرب ، وقيل : إلى التربية، وقيل: إلى الرَّبَّان وهو من يَرُبُّ الناسَ ويُصْلِحُ أمورَهم ويربُّـها ، كما يَرُبُّ الرباني السفينة . وهذا ما ذهب إليه ابنُ جرير الطبري وشيخُ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

وانظر : تفسير الطبري (١/ ١٤٢ ، ٥/ ٥٢٩) ، وزاد المسير لابن الجوزي (١/ ١١، ٤١٣) ، والنهاية لابن الأثير (ص/ ٣٣٩) ، والفتاوى لشيخ الإسلام (١/ ٦١) ، ومفتاح دار السعادة (١/ ٤٠٥-٤١١) ، وزاد المعاد (٣/ ٩) لابن القيم ، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٢١٣) .

ففي بني إسرائيل ربانيون ، وفيهم أحبار، وهم علماء اليهود، وواحدهم حَبْر، وفي النصارى رهبان ، وواحدهم راهب ، وهم عُبَّادُ النصارى.

وقوله تعالى : ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي : إنَّ هؤلاء الربانيين والأحبار قد وُكِلَ إليهم حفظ كتاب الله وهو التوراة.

أما كتابنا وهو القرآن ؛ فإن الله تعالى هو الذي تكفَّل بحفظه ، قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩] .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي : إن الله تعالى استشهدهم وحمَّلهم هذا الكتاب .

* * *

« **ب : الإنجيل : الذي أنزله الله تعالى على عيسى ﷺ ، وهو مصدق للتوراة ومتمم لها :** ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة :٤٦] ، ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران :٥٠] » .

قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة :٤٦] . فدلَّت هذه الآية : على أن الإنجيل فيه هدى ونور ، وفيه مواعظ وإرشادات ، وفيه أحكام وقصص ، وهو مُكَمِّلٌ للتوراة .

وفي الإنجيل تخفيفٌ مما في التوراة من المسائل ، كما قال الله في

سورة آل عمران : ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ، فدلَّتْ هذه الآية على أن الإنجيل أحلَّ أشياءً كانت محرمة على اليهود ، ومن تلك الأحكام التي كانت محرمةً على اليهود ؛ أنهم كانوا لا يأكلون الثُّرُوبَ[1] في بطونِ الغنم والبقر ، ولا يأكلون لحوم الإبل ، ولا يشربون من ألبانها ، فخُفِّفَ عنهم في الإنجيل .

* * *

« ج : الزبور : الذي آتاه الله تعالى داود ﷺ » .

وقد ورد ذكر الزبور في كثير من المواضع في القرآن، كقول الله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء :١٦٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

فالزبور هو الذي أوتيه داود عليه السلام ، وقد ذكروا أنه حِكَمٌ ومواعظ؛ وذلك لأن داود عليه السلام وأمته وذريته مُكَلَّفون بالتوراة ، وقد كانت باقية عندهم.

* * *

« د : صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام » .

ذكر الله تعالى أن فيها شيئاً من الأحكام ، قال تعالى في آخر سورة

---

(١) الثَّرْب : شحم رقيق يغشى الكَرِش والأمعاءَ ، وجمعه ثُرُوب . انظر : النهاية لابن الأثير (ص/ ١٢١) ، ولسان العرب (٢/ ٨٩) .

الأعلى : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى] ، فدلَّت هذه الآية على أن بعض هذه السورة موجود في صحف إبراهيم وموسى ، فإنَّ اسم الإشارة في قوله سبحانه : ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ؛ عائدٌ على قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى] ، وقد قيل : إنَّ اسم الإشارة عائدٌ على آيات السورة كلِّها [(١)] .

وقد ذكر الله عز وجل هذه الصحف في قوله تعالى في سورة النجم : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم] ، فدلت هذه الآيات على أن بعضها موجود في صحف إبراهيم وموسى .

* * *

« هـ : القرآن العظيم الذي أنزله الله على نبيه محمد خاتم النبيين ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة :١٨٥] فكان ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة :٤٨] فنسخ الله به جميع الكتب السابقة وتكفّل بحفظه عن عبث العابثين ، وزيغ المحرفين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩] ؛ لأنه سيبقى حجة على الناس أجمعين إلى يوم القيامة » .

---

(١) اختار ابنُ جرير الأوَّلَ من هذين القولين في تفسيره (٢٤/ ٣٢٣-٣٢٥) ، ونقل اختيارَه ابنُ كثير في تفسيره (٤/ ٥٠٥) وقال بعده : « وهذا الذي اختاره حسنٌ قوي » اهـ.

القرآن العظيم هو خاتمة الكتب ، وهو أعمّها وأشملها وأفضلها ، وهو الذي تكفَّل الله بحفظه ، وأنزله على أشرفِ رسلِهِ محمدٍ ﷺ ، فجعل كتابه آخر الكتب ، وشريعته آخر الشرائع ، وأمته خير الأمم وأفضلها .

وقد وصف الله تعالى هذا الكتاب بأوصاف كثيرة ، منها قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة :١٨٥] .

وقد وصفه سبحانه بالفرقان في آياتٍ كثيرةٍ كذلك ، منها أول آية في سورة الفرقان : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان :١] ، فسماه الله فرقاناً ؛ لأنه يفرِّقُ بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، والشرك والتوحيد، والهدى والضلال .

وفي سورة المائدة ؛ لمَّا ذكر الله تعالى التوراة والإنجيل ؛ قال بعد ذلك : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة :٤٨] أي : إن القرآن محتوٍ على ما احْتَوَتْ عليه الكتبُ السابقة .

ومن خصائص القرآن ؛ أن الله نسخ به جميع الكتب السابقة ، ونسخ العمل بها ، وصار العمل على هذا الكتاب .

وقد تكفَّل الله بحفظه عن عبث العابثين ، وتحريف المحرفين وزيغ الزائغين، فلا يتجرأ أحدٌ أنْ يحُرِّفه ، وذلك لأن الله يسَّر حفظه واستظهاره في الصدور، فيحفظه الصغير والكبير ، ثم يسَّر الله نَسْخَه ؛ فانتشر في شرق

الأرض وغربها ، فلو أن أحداً حرَّف فيه لفظةً أو كلمةً لردَّ الناسُ عليه ؛ لأن الله فَطَرَهم على معرفته ، وتكفَّل بحفظه عن الباطل : ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت :٤٢] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر :٩] المقصود بالذِّكْرِ الوارد في هذه الآية ؛ هو القرآن ، كما جاء ذلك في آياتٍ كثيرة، كقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف : ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف :١٠١] وغيرها من الآيات .

وسمَّاه الله تعالى ذِكْراً ؛ لأنه سيبقى حجة على الناس أجمعين إلى يوم القيامة.

جاء في بعض الأحاديث ؛ أنه يُفقد في آخر الزمان ، عندما لا يبقى مَنْ يعمل به[1]؛ ذَكَرَ ذلك بعضُ الذين تكلّموا في أشراط الساعة ، فجعلوا من

---

(١) روى ابنُ ماجه في كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم (٤٠٤٩) ، والحاكمُ في المستدرك ، كتاب الفتن (٨٤٦٠) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يدرُسُ الإسلام كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثوب حتى لا يُدْرى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نسكٌ ولا صدقةٌ ، وليُسْرَى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ...** » الحديث .

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩٤) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات رواه مُسَدَّد في مسنده عن أبي عوانة عن أبي مالك بإسناده ومتنه، ورواه الحاكم في المستدرك=

أشراطها ذهاب القرآن .

* * *

« أما الكتب السابقة فإنها مؤقتة بأمد ينتهي بنزول ما ينسخها ويبيِّن ما حصل فيها من تحريف وتغيير ؛ ولهذا لم تكن معصومة منه ، فقد وقع فيها التحريف والزيادة والنقص ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء :٤٦] » » .

الكتب السابقة ينسخُ بعضُها بعضاً ، فإذا أنزل الله كتاباً فإنه ينسخ الذي قبله ؛ لأن لها أَمَداً تنتهي إليه ، وذلك بكتاب ينسخها ويبيِّن ما حصل فيها من تحريف ونقص ، فلم يحفظها الله من العبث والتحريف .

ومن جملة تلك الكتب التي طالها التحريف والعبث ؛ التوراة والإنجيل.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله عدداً من الآيات التي تدل على وقوع التحريف في تلك الكتب ، منها قوله تعالى في سورة النساء: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يغيِّرونه ويبدِّلون ألفاظه ويزيدون فيه .

* * *

« ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا

= من طريق أبي كريب عن أبي معاوية به ، وقال : صحيح على شرط مسلم » اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٢١) : « سنده قوي » اهـ .

يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة :٧٩] » .

تدلُّ هـذه الآيـة عـلى وقـوع التحريـف مـن هـؤلاء ، حيـث إنهـم يكتبـون بأيديهم كُتُباً ثم يَكْذِبُون ، ويقولون : هـذا مـن عنـد الله ، فتوعَّـدهـم الله تعـالى بالويل بسبـب كَذِبهِم ، وبالويل لهم أخرى بسبب كَسْبِهم وأَخْذِهم الأموال بغير حق .

* * *

« ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾ [الأنعام :٩١] » .

أخبر الله تعالى عـن المشركين أنهـم يقولـون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام :٩١] ، فأمر الله نبيَّه بقولـه : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾، فالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام هـو التـوراة ، وصـفه الله بقولـه : ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ ﴾ ، ثم ذكر الله عنهم أنهـم يكتبونـه في أوراق وقـراطيس ، وأنهـم يُظْهِـرُونَ بعضَـه، ويُخْفُونَ أكثرَه ؛ فدلَّت هذه الآية على تحريف أولئك ووقوعِه منهم.

* * *

« ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران :٧٨-٧٩] » .

أخبر الله تعالى عن أولئك في هذه الآية ؛ أنهم يتكلَّمون بالكلمة ، وينطقونها بألسنتهم ، ويدَّعون أنها من كتاب الله ، وهي ليست من كتاب الله في شيء ؛ بل يتعمَّدون إيقاعَ الكذبِ والتحريفِ من عند أنفسِهم ، وأخبر كذلك عن الأنبياء الذين أنزل الله عليهم الكتاب والحكمة وخصَّهم بالنبوة ؛ أنهم لا يَدعُونَ الناسَ إلى عبادة أنفسهم ؛ بل لا يليقُ بأحدِهم ذلك .

* * *

«﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٥-١٧]».

قوله تعالى : ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، فكلمة ﴿تُخْفُونَ﴾ ؛ تدلُّ على وقوع التحريف والزيغ منهم ، وأنهم كانوا يخفون كثيراً من كتبهم التي نزلت على أنبيائهم.

* * *

فصـــل

« ونؤمن بأن الله تعالى بعث إلى الناس رسلاً ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٦٥] » .

أخبر الله تعالى أنه أرسل رسلاً ، وجعل وظيفتهم البشارة والنذارة ؛ البشارة بالخير ، والنذارة بالتحذير عن الشر .

أرسلهم الله إلى خلقه حتى تنقطع الحجة ، وحتى لا يكون هناك عذر ، وحتى لا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ﴾ [المائدة:١٩] ؛ فكان إنزالُ الكتب وإرسالُ الرسل ؛ من أعظم الحجج من الله على أولئك المكذبين .

والله عز وجل له الحجة البالغة على خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام :١٤٩] .

* * *

«ونؤمن بأن أولهم نوح وآخرهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [النساء : ١٦٣] ، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب :٤٠] » .

والدليل على أن أولهم نوح ؛ هذه الآية من سورة النساء : ﴿ كَمَآ أَوْحَيْنَآ

﴿إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ ، فدلّت هذه الآية على أن كلَّ الأنبياء جاؤوا بعد نوح عليه السلام .

ولكن جاء في حديثٍ طويل[1] أن أولهم آدم ، وأن آدمَ نبيٌّ ينزل إليه الوحي، وأنه رسول إلى بنيه وأولاده وأولاد أولاده .

وقد أورد ابنُ كثير في تفسير هذه الآية من سورة النساء أن النبيَّ ﷺ سُئل كم عدد الأنبياء ؟ فقال : « **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً** » ، ثم سُئل عن عدد الرسل منهم ، فقال : « **ثلاثمائة و خمسة عشر جماً غفيراً** » [2] .

فيدلُّ هذا على كثرة عددهم .

---

(١) (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٦٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مطوَّلاً، وفيه : «... قال : قلت : يا نبي الله ، فأي الأنبياء كان أوَّل ؟ قال : آدم عليه السلام. قال : قلت : يا نبي الله ، أوَ نبيٌّ كان آدم ؟ قال : نعم نبي مكلَّم ، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه . ثم قال له : يا آدم قُبْلاً . قال : قلت : يا رسول الله كم وفى عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلاث مائة وخمسة عشر جماً غفيراً » الحديث . وفي إسناده علي بن يزيد وهو الألهاني ضعيف ، ومعان ابن رفاعة لين الحديث كما في التقريب (٤٨١٧)، وأخرجه البزار في مسنده (٤٠٣٤) من طريق عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر رضي الله عنه . وقال : وهذا الكلام لا نعلمه يُروى بهذا اللفظ إلا عن أبي ذر ، وعبيد بن الخشخاش لا نعلم روى عن أبي ذر إلا هذا الحديث. وأخرجه ابن حبان (٦١٩٠) ، والطبرانيُّ في الأوسط (٤٠٣) ، وفي المعجم الكبير (٧٥٤٥) طرفاً منه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩٦) : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح . وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٤-٥٧٦).

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء :١٦٤] ، وقال تعالى : ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر :٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم :٩] ، وقال تعالى : ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] ، فدلّت هذه الآيات على أن الرسل عليهم السلام كثير ، لا يعلم أسماءهم ولا يعلم أيامهم إلا الله .

والدليل على أن آخرهم محمد ﷺ ، هذه الآية من سورة الأحزاب : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ، وفي قراءةٍ : ﴿خاتِم النبيين﴾[1] . فهو ﷺ آخر الأنبياء ولا نبي بعده ، ولمَّا كان الأمر كذلك ؛ كانت رسالتُه آخر الرسائل ، وشريعتُه آخر الشرائع ، وكانت عامَّةً للقاصي والداني ، وللعرب والعجم .

* * *

---

(١) قرأ عاصم والحسَن والشعبي والأعرج بخلاف : بفتح التاء (وخاتَم النبيين) ، وقرأ الجمهور بكسرها : (وخاتِم النبيين) .

انظر : جامع البيان لأبي عمرو الداني (٤/ ١٤٩٥) ، والمحرر الوجيز لابن عطية (١٢/ ٧٦) ، والتفسير المحيط لأبي حيان (٧/ ٢٢٨) .

«وأن أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسى ثم نوح وعيسى ابن مريم، وهم المخصوصون في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب :٧] » .

وهؤلاء هم أولو العزم ، قال الله تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف :٣٥] ، وأولو العزم هم أهل القوة وأهل الثبات .

وقد ذكرهم الله في موضعين من القرآن ، قال الله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب :٧] ، وذكرهم الله تعالى كذلك في سورة الشورى ، قال تعالى : ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى :١٣] ، فهؤلاء خمسةٌ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ذكرهم الله في هاتين الآيتين ؛ دلالةً على ميزتهم وفضلهم .

* * *

« ونعتقد أن شريعة محمد ﷺ حاوية لفضائل شرائع هؤلاء الرسل المخصوصين بالفضل لقوله تعالى : ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى :١٣] » .

نحن نؤمن ونعتقد أن شريعتنا شريعة كاملة ، وأن الله تعالى كمَّلَها بفضله

ورحمته ، وأنها محتويةٌ على تفاصيل الشرائع و محاسنها التي أنزلها اللهُ على أنبيائه ورسلِه .

ذُكِرَ أن الله تعالى أنزل مائة كتاب وأربعة كُتُب[1]، وأن هذه الأربعة : (أي: القرآن ، والإنجيل ، والتوراة ، والزبور) قد احتوت على المعاني التي في تلك المائة، ثم أنزل الله تعالى هذا القرآن محتوياً على معاني الكُتُبِ الأربعة، فيكون مرجع هذه الكتب كلِّها إلى هذا القرآن العظيم ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة :٤٨] .

* * *

«ونؤمن بأن جميع الرسل بشر مخلوقون ، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء ، قال الله تعالى عن نوح وهو أولهم : ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود :٣١] ، وأمر الله تعالى محمداً وهو آخرهم أن يقول : ﴿ لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وأن يقول: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وأن يقول: ﴿إِنِّى لَآ

---

(١) في حديث طويل ، أخرجه ابنُ حبان (٣٦١) ، والآجري في الأربعين (٤٠) ، وأبونعيم في الحلية (١/ ١٦٧) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٧٤-٢٧٥) من رواية أبي ذر رضي الله عنه .

أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن :٢١-٢٢] » .

نحن نؤمن ونعتقد أن جميع الرسل بشرٌ مخلوقون ؛ ليس لهم من خصائص الربوبية شيء ، وهذا ردٌّ على من يغلو فيهم ، ويجعل لهم شيئاً من حق الله ، كالذين يعبدون الأنبياء ويدعونهم مع الله .

فإن الأنبياء عليهم السلام مهما عَلَتْ منزلتُهم ؛ فإنهم لن يخرجوا عن الصفة البشرية ، فكلُّهم بشرٌ مخلوقون .

ولمَّا أن أهل مكة تعنَّتوا وقالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء : ٩٠-٩٣] ، لمَّا قالوا ذلك ؛ أمره الله بعدها أن يقول : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء :٩٣] . ثم قال الله بعد هذه الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء :٩٤] ، فهكذا يتعجَّبون ويقولون : ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ؟

وقال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف :١١٠، فصلت :٦] .

وهذه النصوص التي أوردها الشيخ ـ رحمه الله ـ تدلُّ على أن الأنبياء لا

يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا رشداً ، ولو كان أحدُهم يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقال عز شأنه : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل :٦٥] .

فالحاصل ؛ أن الرسلَ كلَّهم ، ما خرجوا بالرسالة عن كونهم بشراً .

* * *

« ونؤمن بأنهم عبيد من عباد الله أكرمهم الله تعالى بالرسالة ، ووصفهم بالعبودية في أعلى مقاماتهم وفي سياق الثناء عليهم » .

ونؤمن ونعتقد أن جميع الرسل لم ولن يخرجوا من العبودية ، حتى وإن تميَّزوا بالرسالة .

ذُكِرَ أن أعرابياً لما قيل له هذا رسول الله ؛ اِرْتَعَدَ هيبةً له، فقال له النبيُّ ﷺ: **« هوِّن عليك ، فإني لست بملِك ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»**[1] والقديد : اللحم المجفّف . ومعناه : أن رسول الله ﷺ ليس ملَكاً ؛ ولا ملِكاً إنما هو عبدٌ لله .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة ، باب القديد (٣٣١٢) ، والحاكم في المستدرك (٤٣٦٦) ، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩) : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

وجاء أيضاً أن صحابةَ رسول الله ﷺ أرادوا أن يرفعوا له مكاناً ، فأخبرهم عليه الصلاةُ والسلام أنه يأكلُ كما يأكل العبد ، ويجلسُ كما يجلس العبد[1]. وهذا تواضعٌ منه ﷺ ، فالعبودية شرف له ﷺ :

إذا قيل هذا عبدُهم ومحبُّهم تهلَّلَ بشراً ضاحكاً يتبسم[2]

فالعبودية إذا كانت لله تعالى ؛ فهي صفة كمال ، ترفع منزلة الإنسان الذي يتعبدُ ويتذلَّلُ لمولاه .

* * *

« **فقال في أولهم نوح** : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء :٣] » .

بدأ الله تعالى في وصف نبيِّه نوح بوصف العبودية ، ليؤكِّد على أنه ما خرج بالرسالة عن العبودية ، فالعبودية وصفٌ لجميع الخلق ، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم :٩٣].

* * *

« **وقال في آخرهم محمد ﷺ** : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان :١] » .

---

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند (٨/ ٣١٨) برقم (٤٩٢٠) ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩) : إسناده حسن .

(٢) البيت ضمنَ قصيدةٍ لابن القيم رحمه الله في طريق الهجرتين (١/ ١١٣) .

كذلك آخر الأنبياء وهو محمد ﷺ ؛ وَصَفَه الله تعالى بالعبودية ، وذلك في أعلى مقاماته وهو مقام التحدي ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة :٢٣] ، فمع إعجاز رسول الله ﷺ للمشركين بأن يأتوا بمثل ما جاء به ؛ إلا أنه مع ذلك لم يخرج من مقام العبودية .

وقد وصفه الله تعالى بالعبوديةِ أيضاً في مقام الإسراء ، قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء :١] ، أليس مقام الإسراء مقاماً ذا شرف ؟ بلى ، ومع ذلك ما خرج رسول الله ﷺ عن العبودية لله تعالى .

وكذلك في مقام الدعوة ، قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن :١٩] ، فأخبر تعالى أنه ﷺ لم يخرج عن كونه عبداً لله ، مع أنه قام بالدعوة وأعبائها .

وكذلك في مقام الإنزال للكتب ، قال الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف :١] ، وقال تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان :١] .

فدلَّت هذه النصوص وغيرها على أن صفةَ العبودية لله تعالى صفةُ رفعةٍ وشرف .

* * *

« وقال في رسل آخرين : ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص :٤٥] ، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ١٧] ، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص :٣٠] ، وقال في عيسى ابن مريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف :٥٩] » .

وكذلك وصف الله تعالى الأنبياء بالعبودية له سبحانه ، قال الله عن إبراهيم وابنِه وابنِ ابنِه عليهم السلام : ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ، فلم يخرجوا عن عبودية الله ، وقال تعالى عن نبيه داود : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، والأيد : القوة .

وقال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ ، فمع كونه مَلِكاً ؛ قد سخَّر الله له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ، وسخَّر له الشياطين وآتاه الله ما لم يؤت غيره ؛ إلا أنه لم يخرج عن كونه عبداً لله .

ولهذا نجده عليه السلام يقول معترفاً : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل :١٥] ، بل نجِدُ نبيَّ الله سليمان عليه السلام يدعو ربَّه بقوله : ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

وكذلك أيضاً في حق عيسى عليه السلام ، وصفه الله تعالى بقوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف :٥٩] ، بل

قد اعترف عليه السلام بالعبودية لله عز وجل أوّلَ ما تكلّم بقوله عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم :٣٠] ، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء :١٧٢] .

كذلك الملائكة وُصفوا بالعبودية كما تقدم ، قال تعالى : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء :٢٦] .

والقصد من ذكر عبوديةِ الرسلِ والملائكةِ لله تعالى ؛ الردُّ على الذين يَغْلُون فيهم ويَصْرِفُون لهم شيئاً من حق الله تعالى .

والحاصل ؛ أننا نؤمن بالأنبياء والرسل ، ونعتقد أنهم بشر ، وأنهم لا يَمْلِكُون نفعاً ولا ضراً ، وأنهم لم يخرجوا بالرسالةِ والنبوةِ والفضلِ عن هذه العبودية التي هي فضيلةٌ ورفعةٌ وشرفٌ في حقهم .

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن العبودية تنقسم إلى عبودية عامة ، وعبودية خاصة .

فالعبودية العامة ؛ هي عبودية جميع الخلق وأنهم عبيد لله تعالى ؛ يتصرف فيهم سبحانه كيف يشاء ، فيُميت ويحُيي ، ويُفقر ويُغني ، ويَصل ويقطع ، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع ، وهذه العبودية يدخل فيها جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم .

أما العبودية الخاصة ؛ فهي العبودية التي يحصل بسببها شرفٌ لأهلها .

قال الله تعالى : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان :٦] ، فهؤلاء هم عباد الله المصطفون الذين يقومون بعبادة الله حقَّ عبادته ، وهي عبودية شرف .

* * *

« ونؤمن بأن الله تعالى ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ وأرسله إلى جميع الناس لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف :١٥٨] » .

ذكر الشيخ – رحمه الله – أنَّ من أركان الإيمان : الإيمانَ بآخر الرسلِ وخاتَمهم ، وهو نبيُّنا محمد ﷺ .

ومن الإيمان به : الإيمانُ بنجاةِ مَن اتَّبعه ، وبالأخص صحابته الأخيار رضوان الله تعالى عليهم .

وهذا كله داخل في الإيمان بالرسل ، فنؤمن بأن الله تعالى ختم الرسالات بمحمد ﷺ ، فهو خاتم المرسلين وآخرهم ، قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب :٤٠] .

وكلُّ من ادَّعى النبوةَ بعده فإنه كاذب ، كما قال ﷺ: **« إنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي »**[1] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٧٨)، وأبوداود في كتاب الفن والملاحم، باب =

فهو خاتم النبيين ، وشريعته خاتمة الشرائع ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن رسالته ﷺ عامة إلى الناس كافة ، وهذا من خصائصه ﷺ .

وقد دلَّت على عموم رسالته الآياتُ والأحاديث.

فقد ذَكَرَ ﷺ أنه تميَّز عن الأنبياء بخمسٍ ، قال عليه الصلاة والسلام : «**أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبلي ...**» ، وذكر منها : «**... وكان النبيُّ يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة**»[1] ، وفي روايةٍ عند مسلم : «**وبعثت إلى كلِّ أحمرَ وأسود**» أي : إلى جميع البشر .

وقال ﷺ : «**والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصراني ثم يموت ، ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[2] .

وأمَّا الأدلة من الكتاب : فهي تلك الآيات التي فيها خطاب للناس جميعاً .

ومنها هذه الآية التي ذكرها الشيخُ رحمه الله ، وهي في سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾، فهذا نداءٌ

= ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٥٢) ، والترمذي في أبواب الفتن ، بابٌ لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون (٢٢١٩) وقال : حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٣) .

إلى جميع الناس ؛ يدخل فيه عربُهم وعجمُهم ، أسودُهم وأحمرُهم ، بعيدُهم وقريبُهم .

ثم مجَّد الله تعالى نفسه ، فقال سبحانه : ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي : مُلْكاً وخَلْقاً وعبيداً .

وقوله تعالى : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي : إن الألوهية لله وحده فهو يحيي الأموات ويميت الأحياء .

وقوله تعالى : ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي : واجبٌ عليكم أيها الناس جميعاً الإيمانُ بالله ورسوله .

وقد وصفه الله تعالى بالنبيِّ الأميّ .

فالنبيُّ : هو المُنَبَّأ الذي أُنزل عليه الوحي .

ومن صفاته كذلك أنه بقي على أُمِّيَّتِهِ ، فلم يكتب حتى لا يُتَّهم بأنه نقل هذا الكلام مِنْ كُتبِ مَنْ قبله ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت :٤٨] .

فلو كان رسول الله ﷺ يقرأ ويكتب ، لقالوا : إنه كَتَبَ هذا القرآن ونَسَخَه من غيره ، ومع ذلك فقد قالوه ، كما في سورة الفرقان : ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان :٥] .

فهذا دليل على أنّ الوحي يأتيه من الله تعالى ، ويحفظه في صدره ، ويكتبه الله تعالى في قلبه ؛ إذْ كيف له أن يَكْتُبَ القرآنَ وهو لا يقرأ ولا يكتب؟

وقوله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي : يجب على أَتْباعِه أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بكلماته وينتهجوا شِرْعته فبها تتحقق الهداية .

* * *

« ونؤمن بأن شريعته ﷺ هي دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد ديناً سواه لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران :١٩] ، وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة :٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران :٨٥] » .

شريعة محمد ﷺ التي جاء بها من عند الله ؛ هي دين الإسلام الذي منَّ الله علينا بمعرفته واتِّباعه .

وقد فُسِّر الإسلامُ بالأركان الخمسة ، وفُسِّر كذلك بأنه الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله .

وهذه هي حقيقة دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ، فلا يرضى لهم غيره، ولا يقبل من أحد ديناً سواه .

وبهذه النصوص التي ذكرها الشيخ ـ رحمه الله ـ يُعرَفُ أن دينَ الإسلام ناسخٌ للأديانِ كلِّها ، وناسخٌ للشرائعِ التي قبله ، حتى قال ﷺ لعمر رضي الله عنه لما رأى معه الصحف التي استنسخها من التوراة: **«أوَ في شك يا ابن الخطاب، لقد**

جئتكم بها بيضاء، لو كان أخي موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي »[1] .

* * *

«ونرى أن من زعم اليوم ديناً قائماً مقبولاً عند الله سوى دين الإسلام، من دين اليهودية أو النصرانية أو غيرهما ، فهو كافر ، ثم إن كان أصله مسلماً يُستتاب ، فإن تاب وإلا قُتل مرتداً لأنه مكذب للقرآن » .

فمن قال: إني لا أقبلُ الإسلام ، بل أَدينُ بدينٍ آخر كاليهودية أو النصرانية أو الشيوعية أو البوذية أو القاديانية أو الهندوسية ؛ فإن دينه باطل وهو كافر ، حيث ترك الدين الصحيح .

فإن كان مسلماً ثم اختار أن يكون بوذيّاً أو أن يكون شيوعيّاً ؛ فإنه يعتبر مرتداً ، وفي الحديث : «من بدَّل دينه فاقتلوه»[2] ، فيستتاب فإن تاب وإلا قُتل ، فإذا قُتل مرتداً فإنه يُقتل كافراً ، ويُعامَلُ معاملةَ الكفار ، فلا يُقبر مع المسلمين ، ولا يُغسِّلُونه ، ولا يُصَلُّون عليه ؛ لأنه مكذِّب بالدين ، ومكذِّب بالشريعة ، ومكذِّب بالقرآن.

* * *

« ونرى أن من كفر برسالة محمد ﷺ إلى الناس جميعاً فقد كفر بجميع الرسل ، حتى برسوله الذي يزعم أنه مؤمن به متبع له ، لقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء :١٠٥] فجعلهم مكذبين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٨٧)، وأبوداود بنحوه في المراسيل (٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين ، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم (٦٩٢٢) .

لجميع الرسل مع أنه لم يسبق نوحاً رسول » .

وكذلك مَنْ قال : إن رسالة محمد ﷺ حق ، ولكنها ليست إلى الناس جميعاً ، فهذا أيضاً كافر ، فإن بعضَ النصارى ونحوَهم يقولون : إن محمداً مرسل ؛ ولكنه رسولٌ إلى العربِ ، فلا يعمُّنا شرعُه ، ولا نُطَالَبُ بدينه ، وهؤلاء مُكذِّبون بالقرآن الذي فيه الخطابات العامة للناس ، فالله تعالى يقول : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف :١٥٨] . ويقول سبحانه : ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام :١٩] ، فمن بلغه هذا الدين ، فإنه مُطَالَب بأن يعتنقه وأن يدين به ، فمن كذَّب برسالته ﷺ ، وأنكر أنها إلى الناس جميعاً ؛ فقد كفر بجميع الرسل ؛ لا برسولٍ واحد ، ولو قال : إني أُومِنُ بموسى أو أُومِنُ بعيسى وأكفر بمحمد ﷺ فهذا أيضاً كافر .

ومن كَفَر بواحدٍ من الأنبياء ؛ فقد كَفَر بجميع الأنبياء ، وهو مُكذِّبٌ لرسوله الذي أُرسل إليه ، فجميعُ رُسُلِ الله يصدِّق بعضُهم بعضاً .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ [آل عمران :٨١] .

ذُكِر في تفسير هذه الآية قول ابن عباس رضي الله عنه[١] : ما بعث الله نبياً

---

(١) ذكره ابنُ جرير في تفسيره (٥/ ٥٤٠) ، وابنُ كثير في تفسيره (١/ ٣٦٩) وعزاه ابنُ كثير إلى علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما .

إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بُعِثَ محمدٌ ﷺ وهو حيٌّ ؛ ليؤمِنُنَّ به ولينصُرُنَّه ، وكذلك يأخذ على قومه الميثاق ؛ لئن بُعث محمَّدٌ ﷺ وهم أحياء ؛ ليؤمِنُنَّ به وليُنصرُنَّه، وهكذا كل الأنبياء، بل إن كلَّ رسول يُؤمر بأن يُصدِّقَ بالرسول الذي بعده ويبشِّر به ، فعيسى عليه السلام بشَّر بالنبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦] ، فمن كذَّب بواحدٍ من الرسل ؛ فهو كافرٌ ومُكذِّبٌ لجميع الرسل .

ونحن نقول للذين كذَّبوا محمداً من اليهود أو النصارى : إنكم بتكذيبكم محمداً ﷺ قد كذَّبتم بموسى يا يهود ، وأنتم كذَّبتم بعيسى يا نصارى ، ولو كنتم كما تدَّعون أنكم مصدِّقون ومتَّبعون لأنبيائكم ؛ لما كذَّبتم أحداً من أنبياء الله.

قال الله في سورة الشعراء : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء :١٠٥] ولم يُرْسَلْ لأولئك إلا نوح عليه السلام ، ولم يَسْبِقْه أحدٌ من المرسلين ، ومع ذلك جعلهم الله مكذِّبين لجميع الرسل ، ومثل هذا في آيات كثيرة : ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء :١٢٣]، وما أُرسل إليهم إلا هود ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٤١] ، وما أُرسل إليهم إلا صالح ، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٦٠] وما أرسل إليهم إلا لوط ، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٧٦] وما أُرسل إليهم إلا شعيب عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

* * *

« وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء :١٥٠-١٥١] » .

يخبر الله تعالى في هذه الآية عن الذين يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ؛ بأنهم كافرون حقاً مع أنهم يؤمنون ببعض الرسل.

فلما كذَّب هؤلاء ببعض الرسل ، قال الله عنهم : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾ أي : كفراً كاملاً كليّاً .

ثم قال الله في الآية التي بعدها : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء :١٥٢] .

* * *

« ونؤمن بأنه لا نبي بعد محمد رسول الله ﷺ ، ومن ادَّعى النبوة بعده أو صدَّق من ادَّعاها فهو كافر ؛ لأنه مكذب للكتاب والسنة وإجماع المسلمين» .

وقد ادَّعى النبوَّةَ خلقٌ كثير ، منهم من كان في العهد النبوي كمسيلمة ، وادَّعاها كذلك الأسود العَنْسِي ، وهؤلاء قُتلا كافِرَيْن.

وادَّعاها كذلك طُلَيحةُ الأَسَدَي ، ولكنه تاب وتراجع ، وتَنَبَّأت امرأةٌ يقال

لها سجاح ، ولكنها أيضاً تابت .

وظهر كثيرٌ من أدعياء النبوة وهم كاذبون ، جاء في السنن قوله ﷺ : « **إنَّه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي** »[١] .

ذَكَرَ بعضُ المشايخ أنه قد خرج منهم سبعة وعشرون ، ويمكن أن يكون الثامن والعشرون هو غلام أحمد القادياني ، الذي ابتلي به خلق كثير ، وأتباعه كثر يُسمَّون القاديانية ، وقد ادَّعى أن الوحي ينزل عليه .

والمدَّعي للنبوة بعد النبيِّ ﷺ كذَّاب ، ومن صدَّقه فهو كافر ، وهؤلاء الذين صدَّقوا القادياني واتبعوه ؛ مُكَذِّبون للكتاب والسنة ، مُكَذِّبون لإجماع الأمة .

* * *

«ونؤمن بأن للنبي ﷺ خلفاء راشدين خلفوه في أمته علماً ودعوة وولاية، وبأن أفضلهم وأحقهم بالخلافة أبوبكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين » .

ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ بعد ذلك الصحابة ، والخلفاء الراشدين الذين جاؤوا بعد النبيِّ ﷺ وخَلَفُوه من بعده .

وصفهم رسول الله ﷺ بالرشد ، كما في قوله ﷺ : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي** »[٢] ، فالراشدون هم المهتدون الذين

---

(١) تقدم تخريجه (ص/ ١٣٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٢٦)، وأبوداود في كتاب السنة، بابٌ في لزوم السنة =

على طريق الرشاد والهداية ، لا على طريق الضلالة والغواية .

وأفضلُهم وأحقُّهم بالخلافة أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، سُمِّي بالصدِّيق لمبالغته في التصديق ، وقيل : إنه نزل فيه قول الله تعالى في سورة الزمر : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر :٣٣] فالذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ ، والذي صدَّق به هو أبوبكر رضي الله عنه[١] .

ثم خلف أبابكر رضي الله عنه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه ، ويُسمَّى الفاروق ؛ لأن الله فرَّق بإسلامه بين المسلمين والكافرين ، فإنه لمَّا أسلم رضي الله عنه ؛ انتصر المسلمون وتقوَّوا ، وخرجوا وقد كانوا مستخفين ، فخرجوا يصلُّون في المسجد الحرام ، يقول ابن مسعود رضي الله عنه : ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر[٢] .

ثم جاء بعده في الخلافة عثمانُ رضي الله عنه ، فإن عمر رضي الله عنه ما اختار خليفةً مِنْ بعدِه ، ولكنه جعل الأمر شورى بين ستة من الصحابة فاختاروا عثمان رضي الله عنه لِمَا له من الفضل .

= (٤٦٠٧) ، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٢٠٤) من قول عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣٦٨٤) .

ولما قُتل عثمان رضي الله عنه ؛ لم يكن هناك أولى من عليٍّ رضي الله عنه، فبُويع بالخلافة ، ولكنَّ أهلَ الشام ثاروا عليه مطالبين بدم عثمان ، ولم يبايعوه ، فطلب منهم مبايعته ، لينظُرَ بعد ذلك في شأنِ القتلة ، ومع ذلك فهو المعتبر في الخلافة ، وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون .

* * *

« وهكذا كانوا في الخلافة قدراً كما كانوا في الفضيلة شرعاً » .

فالأوّل أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين ، وهذا ترتيبهم في الخلافة ، وكذلك ترتيبهم في الفضيلة ، فترتيبهم في الخلافة متفقٌ عليه ؛ إلا من الرافضة الذين يكفِّرونهم ، ولا شك أن خلافتهم خلافة رشد ، وقد أخبر بها النبي ﷺ ، ولمَّا أن الرافضة غلوا في علي رضي الله عنه ؛ لم يجدوا بُدّاً من الطَّعن في الخلفاء الذين قبله ، وادَّعوا أنهم مغتصبون للخلافة ، ولهم في ذلك أقوال بشعة .

* * *

« وما كان الله تعالى - وله الحكمة البالغة - ليولي على خير القرون رجلاً ، وفيهم من هو خير منه وأجدر بالخلافة » .

لله عز وجل الحكمة البالغة ؛ إذ كيف يولِّي على الأمة رجلاً مفضولاً وفيهم من هو أفضل منه ، ونحن نعترف بفضل الصحابة جميعاً . ونعلم فضل علي رضي الله عنه وقرابته من رسول الله ﷺ ، ولكنَّ أبا بكر أول من أسلم من الرجال ، وهو الذي صحب النبي ﷺ ، وقد أسلم على يديه

عثمان، وعبدالرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين . فكل هؤلاء وغيرهم قد أسلموا على يدي أبي بكر رضي الله عنه ؛ وذلك لفقهه وعلمه ، ورجاحةِ عقلِه [1] .

فلهذه الفضائل وغيرها من الفضائل الكثيرة؛ كان رضي الله عنه أولى بالخلافة.

* * *

« ونؤمن بأن المفضول من هؤلاء قد يتميز بخصيصة يفوق فيها من هو أفضل منه ، لكنه لا يستحق بها الفضل المطلق على مَنْ فَضَلَه ؛ لأن موجبات الفضل كثيرة متنوعة » .

نحن نؤمن بأن المفضول قد يتميَّز بشيء يخصُّه ؛ يفوق به مَنْ هو أفضل منه ، فإن أبابكر رضي الله عنه مفضولٌ من حيث النسب ؛ لأنه من بني تَيْم فهو أبعدهم نسباً ، ولكنه مع ذلك فاضلٌ من حيث السَّبْق إلى الإيمان، ومن حيث العلم ، وفاضلٌ من حيث العقل والديانة ، وكثرة الأعمال الصالحة والتأثير في الإسلام ، فموجبات الفضل كثيرة متنوعة .

* * *

« ونؤمن بأن هذه الأمة خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل ؛ لقوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] » .

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام (١/ ١٩٦-١٩٧) ، ومنهاج السنة النبوية (٤/ ٢٠٢، ٦٠٢، ٣/ ٥٠٤-٥٠٥)، والفوائد لابن القيِّم (ص/ ١٠٣)، والبداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧٣-٧٥) .

أورد ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية من سورة آل عمران [1] أكثرَ من عشرين حديثاً في فضل هذه الأمة ، وأنها خير الأمم .

* * *

« ونؤمن بأن خير هذه الأمة الصحابة ثم التابعون ثم تابعوهم » .

دليل ذلك قول النبي ﷺ : **« خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »** [2] .

ولم تنتشر الفتن إلا مِنْ بعدهم ، ولم ينقُص العلم ؛ ولم تتغير السُّنة ؛ إلا بعد هذه القرون المفضَّلة ، وقد حدث فيها بعض البدع ؛ إلا أنها لم تتمكن .

* * *

« وبأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين ، لا يضرُّهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمرُ الله عز وجل » [3] .

وهذه هي الطائفة المنصورة ، فإن الله قد أخبر أنها باقية إلى قيام السَّاعة ؛

---

(١) التفسير : (١/ ٣٨٢) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ، باب : لا يشهد على شهادة جَوْر إذا أشهد (٢٦٥٢) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ، باب قول النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون » وهم أهل العلم (٧٣١١) ، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » (١٩٢٠) .

لأن دين الله تعالى لابدَّ أن يبلُغَ آخر هذه الأمة ، فيبقي اللهُ طائفةً على الحق ، وقد يكونوا متفرقين ، فبعضهم في الشرق ، وبعضهم في الغرب ، وبعضهم في الجنوب ، وبعضهم في الشمال ، وبعضهم في الوسط ، وقد يكونون عزيزين في جهة ، ذليلين في جهة أخرى، فلابد أن يكون هناك من يؤدِّي الحق ، ومن يشهد به ، ومن يبلِّغُه ، حتى لا يكون هناك من يحتج ، ويقول : ما بلغنا هذا الدين .

* * *

« ونعتقد أن ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من الفتن ، فقد صدر عن تأويل اجتهدوا فيه ، فمن كان منهم مصيباً كان له أجران ، ومن كان منهم مخطئاً فله أجر واحد وخطؤه مغفور له » .

ومن ذلك القتال في وقعة الجمل [سنة ٣٦هـ][1] ، والذي كان سَبَبُه ؛ أنَّ قَتَلة عثمان رضي الله عنه لمَّا خافوا أنهم يُقتلون ؛ أوقعوا القتال بينهم وبين أصحاب الجمل الذي كانت عليه عائشة رضي الله عنها ، وإلا فإنهم قد اصطلحوا على أن يقتلوا قتلة عثمان .

وكذلك وقعة صفين [سنة ٣٦هـ] [2] ، لما جاء أهل الشام يطالبون بقتلة

---

(١) انظر : تاريخ الطبري (٤/ ٥٠٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨/ ٢٥٢) ، والبداية والنهاية (١٠/ ٤٣١) .

(٢) انظر : تاريخ الطبري (٤/ ٥٦٣ وما بعدها) ، والسير (٢٨/ ٢٦٠) ، والبداية والنهاية (١٠/ ٤٩٠) .

عثمان ؛ قال لهم علي رضي الله عنه : بايعوني ، ونحن وإيَّاكم نَتَقَوَّى عليهم ، فامتنعوا ، فهو يدعوهم إلى البيعة ، وهم يدَّعون أنهم لا يبايعونه إلا بعد قَتْلِ قَتَلة عثمان ، ووقعت هذه الوقعة الكبيرة .

وهم معذورون فيما صدر منهم ؛ إذْ صدر عن تأويل ، المصيب منهم له أجران ، والمخطئ له أجر واحد ، وخطؤه معفوٌّ عنه .

* * *

«ونرى أنه يجب الكفُّ عن مساوئهم، فلا نذكرهم إلا بما يستحقونه من الثناء الجميل ، وأن نطهِّر قلوبنا من الغل والحقد على أحد منهم» .

إذا قُدِّر أن للصحابة أخطاءً ؛ فإننا ـ نحن أهل السنة ـ نكفُّ عنها .

أما الرافضة فإنهم قد عكسوا الأمر ، فهم يتتبعون الأخطاء ، ويجعلون الصغيرة كبيرة ، ويجعلون المثالب في الصحابة ، ويَنْسَونَ محاسنَهم ويَصْرِفُونها عمَّا تدلُّ عليه . فإن النصوصَ ظاهرةٌ في فضلهم ، ولكن الرافضة يدَّعون أن تلك النصوص جاءت بفضلهم قبل أن يرتدُّوا ، وهكذا يدَّعون !

فالفضائلُ التي في القرآن ، والفضائلُ التي في السنة يُبْطِلُون أثرها ، وعندما نسألهم : كيف بطلت ؟ يقولون : إنهم قد ارتدُّوا ؛ لأنهم لم يولُّوا علياً على الخلافة ، وأن الصحابة جحدوا الوصية ، فكان ذلك سبباً في إبطال الفضائل، بل في إبطالِ الأعمالِ كلِّها ، ولو كان لهم أمثال الجبال من الحسنات .

ونحن نقول : إن الله تعالى لا يمكن أن يمدح قوماً ؛ وهو يعلم أنهم يكفرون فيما بعد ، فالله تعالى أعلم بهم .

والله تعالى يقول : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

فلا شكَّ أن هذه الآيةَ تعمُّ جميعَ الصحابة ، والله تعالى يخبر عن نفسه أنه رضي عن السابقين من المهاجرين والأنصار ، والذين أسلموا بعد ذلك وأحْسَنُوا ، فكيف يذكر سبحانه وتعالى أنه رضي عنهم ؛ وهو يعلم أنهم سوف يرتدُّون ؛ أما كان عالماً بحالهم ؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فيجب علينا أن نكفَّ عن مساوئهم ، وأن نُثْنِيَ عليهم بما أثنى الله عليهم ، وأن نطهِّر قلوبَنا من الغلّ والحقد على أحدٍ منهم .

* * *

« **لقوله تعالى فيهم : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد : ١٠]** » .

قيل إن المقصودَ بالفتح في هذه الآية فتحُ مكة، وقيل: صلح الحديبية[(١)] .

---

(١) واختاره ابنُ جرير في تفسيره (٢٢/ ٣٩٥) وشيخُ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ١٥٢ ، ١١/ ٢٢٢ ، ٣٥/ ٦٠) ، ومنهاج السنة (١/ ٣٦١) ، وذكر ابنُ كثير هذين القولين في تفسيره (٤/ ٣٠٦) ، ونسب الأوَّل منهما إلى الجمهور ، واختاره ومالَ إليه . وانظر : زاد المسير لابن الجوزي (٨/ ١٦٣) ، وتفسير ابن كثير لأوائل سورة الفتح (٤/ ١٨٢)، والبداية والنهاية (٦/ ٥٠٨) ، =

فالذين أنفقوا قبل الصُّلح أفضل من الذين أسلموا بعد ذلك وأنفقوا .

وفي هذه الآية وَعْدٌ من الله للصحابة بالحسنى ، أَيَعِدُهم الله بها وهو يعلم أنهم سوف يرتدُّون ؟

* * *

« **وقول الله تعالى فينا :** ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ **[الحشر : ١٠]** » .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي : إن الصحابة المتأخرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ؛ يَدْعُون لمن سبقهم من المؤمنين : ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي : لا تجعل في قلوبنا حقداً وبغضاً وضغينةً على أحدٍ من أهلِ الإيمان .

وهذه المقالة هي مقالة الصحابة المتأخرين ، وهي مقالة مَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، إلا الرافضة فإنهم يَدْعُون عليهم .

* * *

= وتفسير السعدي (٤/ ١٧٧٦) .

فصــل

« ونؤمن باليوم الآخر وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده ، حين يبعث الناس أحياء للبقاء إما في دار النعيم ، وإما في دار العذاب الأليم ».

ذكر الشيخ - رحمه الله - الإيمان باليوم الآخر الذي هو يوم القيامة ، وهو ركن من أركان الإيمان ، ويكثُر ذكرُه واقترانُه بالإيمان بالله .

وفي مواضعَ كثيرةٍ لا يُذكر إلا هذان الركنان .

في مثل قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة :٩٩] ، وفي مثل قوله ﷺ : **« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »**[(١)] ، وكذلك قوله ﷺ : **« لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج »**[(٢)] .

فلم يُذْكَر في هذه النصوص إلا ركنان : الإيمان بالله والإيمان باليوم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت (٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب إحداد المرأة على غير زوجها (١٢٨٠)، ومسلم في كتاب الطلاق ، باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام (١٤٨٦) .

الآخر ؛ وذلك لأن الإيمان بالله تدخل فيه بقية الأركان ، ولهذا نحن نقول : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والإيمان باليوم الآخر .

واليوم الآخر هو يوم القيامة الذي هو البعث بعد الموت ، وهو الذي لا يوم بعده . يبعث اللهُ فيه الناسَ أحياءً للحياة الباقية ، فيكونون في نعيم أو في جحيم ، إما في النار وإما في الجنة .

* * *

«فنؤمن بالبعث وهو إحياء الله تعالى الموتى، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر :٦٨]».

نؤمن بالبعث بعد الموت ، ونؤمن بإحياء الله الموتى ؛ ولو كانوا كثيرينَ لا يحْصِيهم إلا الله ، فإن الله قادر على أن يجمعهم ويحييهم .

وقد ذُكِرَتْ في القرآن نفختان :

قال الله تعالى في سورة الزمر : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ...﴾ ، وهذه نفخة الصَّعق التي هي نفخة الموت ، فإذا نُفِخَ في الصور فإنهم يُصْعَقُون ويموتون .

ثم قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، وهذه هي النفخة الثانية ، والتي هي نفخة البعث .

ولكن ذُكِرَ في آخر سورة النمل نفخة الفزع ، وذلك في قوله تعالى :

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل :٨٧] ، والصحيح أنها هي النفخة الأولى . فإنه يُنْفَخُ أولاً فيَفْزَعُون ، فتَطولُ النفخة فيموتون ، فيكون أولها فزعٌ يموج بعضهم في بعض ، وآخرها صعق وموت .

والصَّعقُ هو الموت ، كقوله تعالى في هذه الآية : ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي : ماتوا .

وقد تُطْلَقُ الصَّعقة على الغشية ، كقوله تعالى : ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ [الأعراف :١٤٣] أي : مغشياً عليه .

والصور : قرن طويل يُنفَخُ فيه ، فإذا نُفخ فيه ؛ وصل صوت هذه النفخة إلى الأرض كلِّها شرقِها وغربِها ، فكان ذلك سبباً في موتهم ، وقد ذكروا أن ما بين النفختين أربعون سنة تبلى فيها العظام[1] .

ثم يُرسِلُ الله ماءً من تحت العرش كمنيِّ الرجال ، فتنبت لُحْمانُهم

---

(١) أخرج البخاريُّ في كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (٤٨١٤) ، ومسلمٌ في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ما بين النفختين (٢٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » ، قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أبيتُ ، قال : أربعون سنة؟ قال : أبيتُ ، قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيتُ .... الحديث .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ٢٩٢) : « وقد جاءت مفسرة من رواية غيره في غير مسلم ؛ أربعون سنة » . وانظر : عمدة القاري (١٩/ ٢٢٣) للعيني ، وإرشاد السَّاري (٧/ ٣٢٣) للقسطلاني .

وجُثمانُهم كما تنبت الأرضُ من الثرى[1] ، فإذا تكاملَ نباتُها ؛ نفخت النفخة الثانية ، والتي هي نفخة البعث .

* * *

«فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين ، حفاة بلا نعال ، عراة بلا ثياب، غُرْلاً بلا ختان ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء :١٠٤] »[2] .

يقول الشيخ رحمه الله : « **فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين ...**» وهكذا قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين :٦] أي : يقومون ويقفون وقوفاً طويلاً .

والناس في ذلك الموقف يُبْعَثُون حفاةً بلا أحذية ، عراة بلا أكسية ، غرلاً غير مختونين ، فتعود إليهم هذه القُلْفة التي قُطِعَتْ منهم ، وذلك لأن قطعها في الدنيا لأجل تكملة الطهارة ، أما الآخرة فليس فيها بول ولا أذى ، فتعود إليهم تلك القلفة ؛ لتذوق حظَّها من نعيم أو عذاب .

كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ ، وفي هذه الآية : وعدٌ من الله عز وجل أن يعيد الخلق بعد موتهم إلى نشأتهم الأولى ، فكما أوجدهم سبحانه من عدم ، ولم يكونوا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩٨) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً . وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾ (٤٧٤٠)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا (٢٨٦٠).

من قبل شيئاً ؛ فإنه سبحانه قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم ، ولعَظَمَةِ الله عز وجل وكمال قدرته ؛ أكَّد ذلك بقوله : ﴿إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ .

* * *

« **ونؤمن بصحائف الأعمال تعطى باليمين أو من وراء الظهور بالشمال** ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق :٧-١٢] ، ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء :١٣-١٤] » .

يُعطَى المؤمنون صحائفَ أعمالهم باليمين ؛ فيكون حسابهم يسيراً ، وهذا حساب العرض ، حيث تُعْرَضُ على المؤمن أعماله دون مناقشة ، وهذا هو الحساب اليسير ، ثم ينقلب إلى أهله مسروراً فرحاً ، ويقول : ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة : ١٩-٢٢] .

وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق :١٠] ، وقال تعالى في سورة الحاقة : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة : ٢٥] ، وذلك أن شمالَه تُلوى وتُجعل خلفَ ظهره ويُعطى كتابه بها، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ أي : يقول: واثبوراه، والثبورُ هو الذُّلُّ والإهانة، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً حامية.

وقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء :١٣] طائره : أي فَأْلَه ؛ إما سعيد وإما شقي ، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ

مَنشُورًا﴾ ، وهذا الكتاب هو كتاب الأعمال .

ثم قال سبحانه : ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي : حاسبْ نفسَك فهذه أعمالُك مكتوبة ، فعند ذلك لا يستطيع أن ينكرَ منها شيئاً ، ويقولون : ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف :٤٩] .

* * *

«ونؤمن بالموازين تُوضع يوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة :٧-٨] ، ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [المؤمنون :١٠٢-١٠٤]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام :١٦٠] » .

نؤمن بالموازين ؛ كما أخبر الله عنها بقوله في سورة الأنبياء : ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء :٤٧] ، والخردل : شجرٌ كبير ، حباته صغيرة ، أصغر من حب الدُّخْن ، أو قريبٌ منه .

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ

أَتَيْنَا بِهَا﴾ ؛ دليلٌ على أن الأعمال كلَّها توزن في هذه الموازين ، فتوضع السيئات في كِفَّة والحسنات في كِفَّة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة] .

والذَّرَّة : هي أصغر ما نشاهده من المخلوقات .

ثم أورد الشيخ رحمه الله آية سورة المؤمنون ، وهي قوله تعالى : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي : ثقلت بالحسنات ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي : مَنْ خفت موازين حسناته، فرجحت موازين سيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، وخسروا حياتَهم وخسروا آخرتَهم ، ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ ، وهذا هو الفرق بين من خفَّت موازينُ حسناتِه ، ومن ثقلت موازينُه بالحسنات .

وقد ذكر الله الموازين في أوائل سورة الأعراف [الآية :٨ و ٩] ، وأواخر سورة المؤمنون [الآية : ١٠٢ و ١٠٣] ، ووسط سورة الأنبياء [الآية : ٤٧] ، وفي سورة القارعة [الآية : ٦ و ٨] ، وفي غيرها .

وكذلك أورد الشيخ رحمه الله آية الأنعام ، وهي قوله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي : إن الله تعالى يُضاعِفُ الحسنةَ إلى عشر حسنات ، وهذا فضلٌ منه سبحانه ، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فالحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ؛ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وفي إيجادِ الله عز وجل لهذه الموازين ، ووضعها للحساب يومَ القيامة ؛ حِكَمٌ عظيمة ، لو لم يكن منها إلا ظهورُ عدلِه سبحانه بين عباده ، وبيانُ

معذرتِه لهم ، فإنه ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله [1] .

وقد اختلف العلماء فيما يوزن؟ فقيل: يوزن العبد ، وقيل: توزن الصحف، وقيل : تجُسَّد الأعمال فتوزن ، ويمكن أن ذلك كلَّه يوزن[2] .

* * *

« ونؤمن بالشفاعة العظمى لرسول الله ﷺ خاصة ، يشفع عند الله تعالى بإذنه ليقضي بين عباده ، حين يصيبهم من الهمِّ والكرب ما لا يُطيقون فيذهبون إلى آدم ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ »[3] .

حين يطول بالناس الموقف ؛ يأتون آدم عليه السلام ، ويقولون : اشفع لنا، فيعتذر ، ثم يذهبون إلى أولي العزم من الرسل ، فيذهبون إلى نوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، كلُّهم يقول : نفسي ، نفسي . فيأتون محمداً ﷺ فيقول : أنا لها. فيشفع بإذن الله حتى يُقْضَى بين العباد ، فينزلُ الله تعالى ويفصلُ بين الناس ، ويقضي بينهم ، ويُرِيْحُهم من طولِ الموقف ، وشفاعةُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، بابُ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ (٤٦٣٤) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) .

(٢) انظر تفصيلاً لذلك في شرح الطحاوية لابن أبي العز : (٢/ ٦٣٦ وما بعدها).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ (٣٣٤٠) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) .

نبينا محمد ﷺ في ذلك الموقف هي الشفاعة العظمى .

* * *

« ونؤمن بالشفاعة فيمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها ، وهي للنبي ﷺ وغيره من النبيين والمؤمنين والملائكة ، وبأن الله تعالى يُخْرِج من النار أقواماً من المؤمنين بغير شفاعة ، بل بفضله ورحمته»[1] .

يدخل النارَ كثيرٌ من أهل التوحيد كأصحاب الكبائر والبدع والمحدثات . فيأذن الله للشفاعة فيهم فيخرجون من النار ، بعدما امتُحِشوا ، فمنهم من يكون قد احترق حتى صار حمماً ، ومنهم من قد احترق ظاهره ، فيُلْقَون في نهرٍ يقال له : نهر الحياة ، فينْبُتُون كما تنبت الحِبَّةُ في حَمِيل السيل[2] ، وجاء في حديث آخر : أنهم يسمَّون الجهنميون[3] . فيأمر الله بإزالة ذلك الاسم عنهم، ثم يدخلون الجنة إذا كان معهم أصل التوحيد والإيمان ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (٧٤٣٩) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

(٢)أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦٠) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (١٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٤٥٠) .

وهؤلاء الذين دخلوا النار وأُخْرِجُوا منها ؛ لم يدْخُلُوها إلا بسبب الكبائر التي لا تكفِّرهم ، أما الذين عندهم ما يكفِّرهم فإنهم يُخَلَّدون .

يشفع النبيُّون ، ويشفع المؤمنون ، وتشفع الملائكة ، ويُعْرَفُ أولئك بأثر السجود ، فإن الله حرَّم على النار أن تأكل من بني آدم أثر السجود ، وجاء في الحديث : أن الله يُخْرِجُ قوماً من أهل لا إله إلا الله بدون شفاعة ، يقبض قبضة فيخرجهم ويقول : شفعت الأنبياء ، وشفع المرسلون ، وشفعت الملائكة ، ولم يبقَ إلا رب العالمين ، فيَقْبِضُ قبضةً فيُخْرِجُهم ولم يعملوا خيراً قط ، إلا أنَّ معهم أصل التوحيد ، فيُخْرِجُهم الله بفضله ورحمته .

* * *

« ونؤمن بحوض رسول الله ﷺ ، ماؤُه أشدُّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب من رائحة المسك ، طوله شهر وعرضه شهر ، وآنيته كنجوم السماء حسناً وكثرةً ، يَرِدُه المؤمنون من أُمَّته ، من شرب منه لم يظمأ بعد ذلك »[1] .

لكلِّ نبيٍّ حوض ، وحوضُ نبينا ﷺ أكثرهم وارداً ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب رائحة من المسك ، طوله شهر ، وعرضه شهر ، وفي بعض الروايات ؛ أنه من عَدَنِ أبيَنَ إلى الشام ، آنيته كنجوم السماء في حُسْنِها وكثرتها ، من شَرِبَ منه لم يظمأ بعد ذلك .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، بابٌ في الحوض (٦٥٧٩ ، ٦٥٨٠) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٢) .

وقد وردَ في حوض النبي ﷺ أكثر من أربعين حديثاً ، سردها ابن كثير رحمه الله في النهاية[1] .

* * *

« ونؤمن بالصراط المنصوب على جهنم ، يمرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم ، فيمر أولهم كالبرق ثم كمرِّ الريح ثم كمرِّ الطير وأشد الرجال ، والنبي ﷺ قائم على الصراط يقول : يا ربّ سلِّم سلِّم . حتى تعجز أعمال العباد ، فيأتي من يزحف ، وفي حافَتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة ، تأخذ من أُمِرَتْ بهِ ؛ فمخدوش ناجٍ ومكردس في النار »[2] .

يَنْصِبُ اللهُ صراطاً مستقيماً طريقاً على النار ، يمرُّ عليه النـاسُ بحسب أعمالهم ، فمنهم من يمرُّ كالبرق ، ومنهم من يمرُّ كالريح ، ومنهم من يمرُّ كأجاويد الخيل والرِّكاب ، ومنهم من يعدُو عَدْواً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، وعلى جنبتي الصراط كلاليب ، مثل أشواك السَّعْدَان، تخطف من أُمرت بخطفه ، فناجٍ مسلَّم ، ومخدوش مكردس في النار .

ومرورهم على الصراط هو الورود الذي ذَكَره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِن

---

(١) (١٩/ ٤٢٣ وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ (٧٤٣٩) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

﴿مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم :٧١] ، ومعنى واردها : أي مارٌّ عليها .

فإذا نجوا قالوا : وعد الله بأننا سوف نَرِدُ جهنم وما وردناها ، فيقال : إنكم مررتم عليها وهي خامدة .

والنبي ﷺ والأنبياء على جنبتي الصراط ؛ يقولون: اللهم سلِّم سلِّم . أي: سلِّم الأمم .

ويُعْطَون نوراً حالَ عبورهم على الصِّراط ، فمنهم من يكون نوره كالجبل يسير به ، ومنهم من يُعطى نوراً على رأس إبهامه ؛ يضيء تارة ، وينطفئ تارة ، إذا أضاء قدَّم رجله ، وإذا انطفأ وقف .

ومما ورد في صفـةِ هذا الصـراط ؛ أنه أدقُّ من الشعـرة ، وأحدُّ من السيف(١) ، وعبور الناس عليه بقدر أعمالهم .

* * *

«ونؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأهواله، أعاننا الله عليها ويسرها علينا بمنه وكرمه » .

وردتْ أدلةٌ كثيرةٌ في وصف يوم القيامة ، وفي وصف ما جاء فيه ، وفي وصف هوله وشدته ، مثل قوله تعالى : ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل :١٧-١٨] ، وكذلك قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج : ١-٢]

وغير ذلك من الآيات والأحاديث .

وجاء في بعض الآيات ؛ بيانُ طولِ ذلك اليوم ، وأنه كألف سنة ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج :٤٧] ، وفي آية أخرى : ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج :٤] .

هذا بعضٌ مما أخبر به الله عز وجل ونصدِّق بكل ذلك ونؤمن به .

* * *

« ونؤمن بشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها وهي للنبي ﷺ خاصة » .

النبيُّ ﷺ أوَّل من يقرع باب الجنة ، فيقول له الملَك : بك أُمِرْتُ ؛ لا أفتحُ لأحدٍ قبلك[1] ، ثم تكون أمته أول من يدخل الجنة من الأمم ، أخبرنا بذلك النبيُّ ﷺ بقوله : «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[2] فنحن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب في قول النبي ﷺ : « **أنا أول الناس يشفع في الجنة** » (١٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة ، باب فرض الجمعة (٨٧٦) ، ومسلم في كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥) .

الآخِرُون في الدنيا ؛ السابقون يومَ القيامة .

* * *

« ونؤمن بالجنة والنار ، فالجنة : دار النعيم التي أعدَّها الله تعالى للمؤمنين المتقين ، فيها من النعيم ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة :١٧] » .

منتهى ما في الآخرة ؛ أن يدخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، فإذا أُخرج من أهل النار أُناسٌ وأُدخلوا الجنة ؛ أُطبق على أهل النار خالدين فيها أبداً، وبقي أهلُ الجنةِ خالدين فيها أبداً ، فالجنة والنار منتهى ما في الآخرة.

والجنة دارٌ جعلها الله نعيماً لأوليائه ، فيها ما لا تتصوَّره الأعين ، ولا سمعت الآذان بمثله ، ولا خطر على أيِّ قلب ، ودليلُ ذلك من القرآنِ قولُه تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة : ١٧] ، وقوله عز وجل : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف :٧١] ، وهذا دليلٌ على عِظَم نعيمها .

وقد ذكر الله تعالى في كتابه شيئاً كثيراً من تفاصيل نعيم أهل الجنة .

وكذلك في الأحاديث ؛ كحديث الإسراء والذي فيه : أن النبيَّ ﷺ لمَّا لقي إبراهيم عليه السلام قال: **« أقرئ أُمَّتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله**

ولا إله إلا الله والله أكبر »[1] .

وذُكِرَ أنَّ الملائكةَ يبنون للإنسان بيوتاً في الجنة ما دام يذكرُ الله ، فإذا ترك الذِّكرَ توقفوا ، وقالوا : حتى تأتينا النفقة[2] .

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن للجنة ثمانية أبواب واسعة ، جاء في وصف الواحد من تلك الأبواب : « **ما بين مصراعي الباب مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام** »[3] وذلك لكثرة الخلق .

فأخبر النبيُّ ﷺ أنَّ سعةَ الباب مسيرةُ أربعين سنة ، أي : بسير الإبل المعتاد، ولا شك أن الإبل تستطيع أن تقطع مسافات طويلة ، فإن ألفَ ميلٍ مثلاً ؛ قد تقطعها الإبل في شهر ؛ فكيف بأشهر ؟ فكيف بسنة أو سنتين ؟ فكيف بأربعين سنة ؟

وفي هذا دليلٌ على سعة أبواب الجنة ، ومع ذلك فإن هذه الأبواب الثمانية الواسعة ؛ ستزدحم ، وسيدخل منها خَلْقٌ لا يحصيهم إلا الله .

وقد أخبر النبيُّ ﷺ بأن لكل باب اسماً ، فالصائمون الذين يكثرون من الصيام لهم باب الريان ، وهناك باب الصدقة للذين يكثرون من التصدُّق ،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، بابٌ في أن غراس الجنة : « سبحان الله ، والحمد لله ... » (٣٤٦٢) وقال : حديث حسن غريب .

(٢) انظر : حفظ العمر لابن الجوزي (ص/ ٦٣)، والوابل الصيب لابن القيم (ص/ ١٩١) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٧) .

وهناك أيضاً باب الصلاة للذين يكثرون منها ، ولمَّا قال النبيُّ ﷺ : « **مَنْ كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة ، ومَنْ كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان ...** » ؛ سأله أبوبكر رضي الله عنه : هل أحدٌ يُدعى من تلك الأبواب كلها؟ قال : « **نعم ، وأرجو أن تكون منهم** »[1] .

* * *

« **والنار دار العذاب التي أعدّها الله تعالى للكافرين الظالمين، فيها من العذاب والنكال ما لا يخطر على البال** ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف :٢٩] » .

قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ والسرادق : هو السور الذي يحيط بهم . ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي : إن هؤلاء الظالمين إذا استغاثوا وطلبوا ماءً وشراباً ؛ فإنه يأتيهم شرابٌ كالمُهْل .

والمُهْل : هو دُرْدِيُّ الزيت ، أي : حثالة الزيت ، يشوي الوجوه من شِدَّة حرِّه ، قال الله تعالى : ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد :١٥] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ، بابٌ : الريان للصائمين (١٨٩٧) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب فضل من ضَمَّ إلى الصدقةِ غيرَها من أنواع البر (١٠٢٧) .

والآيات والأحاديث كثيرة في وصف النار وشدتها وهولها .

* * *

« **وهما موجودتان الآن ولن تفنيا أبد الآبدين** ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [**الطلاق :١١**] » .

الجنة والنار موجودتان الآن ، وقد أنكر بعضُ المتكلمين وجودَهما ، وقالوا : إن الآخرة متأخِّرة ، والفائدة من وجودهما الآن غير حاصلة ، لأنهما تبقيان معطَّلتين كلَّ هذه المدة الطويلة ؛ فلا فائدة من وجودهما الآن .

ونحن نقول : إن الله تعالى أعدَّهما وهيَّأهُما تحفيزاً لمن يطْلُبها ، يقول تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [الطلاق :١١] ، وصفها الله تعالى بجريان الأنهار من تحتها ، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة ، ووَصَفَ أهلَها بالخلود فيها أبداً .

ووَصْفُ الخلودِ بالتَّأبيد لأهل الجنة ؛ جاء في ثمان آيات ، منها الآية في سورة النساء ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء :٥٧] .

وكذلك في آية أخرى في سورة النساء ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء :١٢٢] .

وكذلك في آخر سورة المائدة [الآية :١١٩] ، وفي أوائل سورة التوبة [الآية : ٢٢] ، وكذلك في وسطها [الآية : ١٠٠] ، وكذلك في سورة التغابن [الآية : ٩] ، وفي سورة الطلاق [الآية : ١١] ، وفي سورة البينة [الآية : ٨] .

وأما وَصْفُ الخلودِ بالتَّأبيد لأهل النار ؛ فجاء في ثلاث آيات : آية في آخر سورة النساء [الآية : ١٦٩] ، وآية في آخر سورة الأحزاب [الآية : ٦٥]، وآية في آخر سورة الجن [الآية : ٢٣] .

فهذه الآيات دليل على أنهم مُخَلَّدون فيها أبداً .

* * *

«﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب :٦٤-٦٦] » .

ذكر الشيخ - رحمه الله - آية الأحزاب ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ، أكّد الله ذلك بالتأبيد ، ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي : لا يجدون ولياً يتولّى أمورَهم ، ولا نصيراً يقومُ بنَصْرِهم .

* * *

«ونشهد بالجنة لكلٍّ من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين : الشهادة لأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، ونحوهم ممن عيَّنهم النبي ﷺ .

ومن الشهادة بالوصف : الشهادة لكل مؤمن أو تقي» .

مَنْ شهد له النبي ﷺ بالجنة ، أو أنه من أهلها ؛ فإننا نشهد له بذلك ، ومن الشهادة بالعين : الشهادة للعشرة المبشرين بالجنة ، جاء في الحديث الذي في السنن والمسند[1] : أنه عليه الصلاة والسلام سمَّى العشرة ، وهم : أبوبكر وعمر وعثمان وعلي ، والستة الباقون من العشرة ؛ نظمهم ابنُ أبي داود في حائيته[2] :

سعيدٌ وسعدٌ وابنُ عوفٍ وطلحةٌ
وعامرُ فِهرٍ والزُّبيرُ المُمَدَّحُ

فهؤلاء عشرةٌ شهد لهم النبي ﷺ بالجنة .

وكذلك قوله ﷺ : « الحسنُ والحسينُ سَيِّدا شباب الجنة ، وفاطمةُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ١٨٧) ، وأبوداود في كتاب السنة ، باب في الخلفاء (٤٦٤٩) ، والترمذي في كتاب المناقب ، باب مناقب عبدالرحمن بن عوف (٣٧٤٨) ، وابن ماجه في كتاب السنة ، فضائل العشرة (١٣٣) .

(٢) أوردها ابنُ أبي يعلى في طبقات الحنابلة (٣/ ١٠٠)، والذهبي في السير (١٣/ ٢٣٣)، والعليمي في المنهج الأحمد (٢/ ١٧) ، وممَّن شَرَحها الإمامُ السَّفَّاريني ، وشرحه مطبوع .

سيدة نساء أهل الجنة »[1] .

ولـمَا ثَبَتَ أن ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه خاف أنه من أهل النار ؛ فأرسل إليه النبي ﷺ وقال : « **إنك من أهل الجنة** »[2].

وكذلك الشهادة بالوصف لكل مؤمن أو تقي ، فإن الله تعالى أخبر بأن المؤمنين الأتقياء في الجنة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ [الطور :١٧] ، وقال عز شأنه : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [القلم : ٣٤] ، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي يُبيِّنُ الله فيها جزاءَ المتقين .

* * *

«ونشهد بالنار لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين : الشهادة لأبي لهب وعمرو بن لحي الخزاعي ونحوهما .

ومن الشهادة بالوصف : الشهادة لكل كافرٍ أو مشركٍ شركاً أكبر أو منافق » .

مَنْ شهد له الكتاب والسنة على أنه من أهل النار ؛ فإنا نشهد بذلك .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب ، باب : إن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة (٣٧٨١) ، وابن ماجه في كتاب السنة (١١٨) وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩) .

وقد تكون تلك الشهادة بالعين أو بالوصف ، فمن الشهادة بالعين : الشهادة بالنار لأبي لهب ، كما في قوله تعالى : ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد :٣] ، وكذلك الشهادة لعمرو بن لحي الخزاعي ، فقد رآه النبيُّ ﷺ يَجُرُّ قُصْبَه في النار [١] .

ومن الشهادة بالوصف : الشهادة بالنار لكل كافر ، أو مشرك شركاً أكبر ، أو منافق ، فمن الشهادة بالنار للمنافقين ؛ قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء :١٤٥] .

* * *

« ونؤمن بفتنة القبر : وهي سؤال الميت في قبره عن ربِّه ودينه ونبيه فـ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم :٢٧] . فيقول المؤمن : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيِّي محمد ، وأمَّا الكافر والمنافق فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته »[٢] .

يأتي الميِّتَ مَلَكان فيسألانه : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فإذا أتياه ؛ فَزِعَ منهما ، وقد جاء في صفتهما ، كما في بعض الأحاديث والروايات :

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب قصة خزاعة (٣٥٢١) ، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٦) .

(٢) تقدم تخريجه (ص/ ١٠٥) في التعليق (٣) .

« **أن أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف** »[1] . وهذا فيه إفزاع عظيم، ولكن الله تعالى يُثَبِّتُ الذين آمنوا بالقول الثابت ، وقد أورد ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية من سورة إبراهيم ؛ الأحاديثَ التي فيها عذاب القبر ونعيمه[2] .

وإذا قال المؤمن : ربي الله وديني الإسلام ونبيِّي محمد ؛ فإنه يقال له : قد علمنا أنك كنتَ كذلك ، نَمْ نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهلِه إليه[3] ، ثم يُفْتَحُ عليه بابٌ من الجنة ، فيأتيه من رَوْحها وريحانها .

أما الكافر والمنافق فيقول: هاه هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيُضرب بمرزبة من حديد ، فيصيح صيحة يسمعها كلُّ شيء إلا الثقلين[4] .

* * *

« **ونؤمن بنعيم القبر للمؤمنين** ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل :٣٢] » .

قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ ، فتقولُ لهم الملائكة :

---

(١) تقدم تخريجه (ص/ ١٠٦) .

(٢) التفسير (٢/ ٥٣١) .

(٣) تقدم تخريجه (ص/ ١٠٥) في التعليق (١) .

(٤) تقدم تخريجه (ص/ ١٠٥) في التعليق (٣) .

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: إن هذا إذا أُخرِجُوا من القبور. وقيل : إن هذا إذا سُلِّمَتْ أرواحهم إلى الملائكة ؛ فتأتيهم بالسَّلام من عند الله ، وتبشِّرُهم بهذه البُشْرى العظيمة ، جعلنا الله من أهلها ؛ بمنِّه وكرمه .

* * *

« ونؤمن بعذاب القبر للظالمين الكافرين : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام :٩٣] » .

أما الكفار فإنهم يعذَّبون ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي : في سكرات الموت ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ، فكلمة : ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تدلُّ على أنهم يَلْقَون عذاب الهون من تلك الساعة التي يموتون فيها ، ومِنْ ذلك اليومِ الذي تُقبض أرواحُهم فيه.

* * *

« والأحاديث في هذا كثيرة معلومة ، فعلى المؤمن أن يؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة من هذه الأمور الغيبية ، وألا يعارضها بما يشاهد في الدنيا، فإن أمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا لظهور الفرق الكبير بينهما ، والله المستعان » .

واجبٌ على المؤمن أن يؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة من أمور الغيب ، وأن لا يعارضها بما يشاهده في الدنيا ، فلا يقول مثلاً : إننا نشاهد الميت لا يُعذَّب ، ونشاهد القبر لا يتغيَّر ، وأنه لا يُضَيَّق ولا يُوَسَّع ، وذلك لأن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا .

فإن فواكه الدنيا مثلاً ليست كفواكه الآخرة في الجنة[1] ، وكذلك نار الدنيا ليست كنار الآخرة ، والفرقُ في هذا كلِّه كبيرٌ وظاهر . والله أعلم .

* * *

---

(١) جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء».
أورده ابنُ جرير في تفسيره (١/ ٤١٦) ، وابنُ كثير في تفسيره (١/ ٦٧) ، و ابن حزم بسنده في « الفِصَل في الملل والأهواء والنحل » (١/ ٣١٣) وقال : وهذا سند في غاية الصحة . اهـ .

وأورده الضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ١٧) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣١٦) : رواه عنه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد .اهـ.

فصـــل

« ونـؤمن بالقـدر : خـيره و شره ، وهـو تقـدير الله تعـالى للكائنـات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته » .

الإيمان بالقدر خيره وشره هو الركن السادس من أركان الإيمان .

ومعنى القدر : أي التقدير ، وهو تقدير الآجال ، وتقدير الحوادث ، وأن الله تعالى هو الذي قدَّرها وعلمها .

وفي أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم خرج قومٌ يُنْكِرُونَ عِلْمَ الله بالأشياء التي لم تحدث ، ويقولون : إن الله تعالى لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها ، فالأشياء المستقبلة لا يعلمها ، فالله لا يدري متى يموت هذا؟ ولا يدري كيف يكتسب هذا ؟ وماذا يكتسب ؟ ولا يدري ما أعمال هذا؟ ولا يدري أهذا سعيد أم شقي؟ ولا يدري كم سيولد لهذا من الأولاد؟ وهذا هو معتقد طائفة من غلاة القدرية ، وهم الذين قال فيهم عبدالله بن عمر رضي الله عنه[١] : إني بريء منهم وهم بُرآءُ مني ، لو أنفق أحدُهم مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما قَبِله الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، واستدلَّ بحديث جبريل المشهور ، وفيه : **« أن تؤمن بالقدر خيره وشره »** .

وقد قال فيهم الإمامُ الشافعي رحمه الله : ناظروهم بالعلم ؛ فإنْ أقَرُّوا به

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨) .

خُصموا، وإن أنكروه كفروا[1] .

أي : سلوهم هل الله تعالى بكل شيء عليم ؟

أتنكرون قول الله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك :١٣] ؟

أتنكرون قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان :٣٤] ؟

فإن أقروا بذلك خُصموا، وإن جحدوه كفروا، لإنكارهم هذه النصوص.

ونحن نقول لهم : ما الفرق بين علم الماضي وعلم المستقبل ؟ هل الحوادث المستقبلة تحدث بنفسها ؟ أو تحدث بإحداث الله لها ؟ فإن اعترفوا بذلك خُصموا ، وإن جحدوه كفروا .

وأصحاب هذه الأقوال هم غلاة القدرية ، كمعبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وهما أشهر من قال بإنكار العلم .

ثم جاء بعدهم المعتزلة الذين يقولون : إن الله لا يقدر على الهداية والإضلال ، ولا يقدر على خلق أفعال العباد ، وأن قدرة العباد أقوى من قدرةِ الله ، وأن العبد إذا أراد فعلاً، وأراد الله أن لا يفعله؛ فإنّ قدرةَ العبدِ تغلبُ قدرة الله ، تعالى الله عما يقولون .

---

(١) انظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص/ ١٠٣) ، والفتاوى لشيخ الإسلام (٢٣/ ٣٤٩) ، وطريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٣٢٠) ، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٤١٤) .

وأصحاب هذه المقالة هـم القدريـة الـذين يُسمَّون مجوس هـذه الأمـة ، ويزعمون أنهم بتلك المقالة ينزِّهون الله تعالى عن الظلم ، ويقولـون : إن الله إذا خلق المعصية في الإنسان أو الكفر أو البدعة ثم عذَّبه عليها فقد ظلمـه . فيكون للكافر حجة على الله بقوله : كيف تخلق فيَّ هذه القدرة ثـم تعـذبني . فهكذا هم يقولون !

ويسمُّون هذا الإنكار : العدل . وهذه طريقة هؤلاء القدرية .

ثم قابلهم طائفة أخرى ينفون قدرة العبد ، ويجعلون العبد مجبوراً على أفعاله ، ويجعلون حركته كحركة المرتعش ، وهو الذي تضطرب يداه ، ولا يقدر على إمساكها ، أو كالريح التي تحرك الشجرة التي ليس لها إرادة ولا همة وإنما تحركها الريح ، فجعلوا أعمال العباد قهرية ، وجعلوا العبدَ مجبوراً على الأعمال خيرها وشرها ، وهؤلاء هم الجبرية .

وتوسَّط أهل السنة ، فقالوا : نثبت للعباد قدرة ، ولكنها قدرة خاضعة لقدرة الله ، ولهم كذلك إرادة ومشيئة ، ولكن إرادة الله ومشيئته سابقة لإرادة العباد ومشيئتهم .

وللعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة ، والله تعالى خالقهم وخالق قُدْرَتهِم وإرادَتِهِم ، والمقصود بالعبد هنا هو الإنسان ، فالعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر ، والمصلي والصائم ، ولولا أن للعبد قدرة لما حصل له الثواب والعقاب .

جاء في الحديث المشهور : « **إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب. قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة** »[1] ، فكُلُّ كلمة ينطق بها الإنسان ؛ فإنها مكتوبةٌ قبل خَلْقِ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[2] ، وكل حركة يتحرَّكها ، وكل كسب يكتسبه ، وكلُّ عملٍ يعمله حسنةً أو سيئةً ؛ فإنّ كلَّ ذلك مكتوبٌ عند الله .

ثم إن الله تعالى وَكَّلَ بالخلق ملائكةً يكتبون أعمال العباد ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار :١٠-١٢] ، وقال تعالى : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق :١٨] .

فأعمال العباد تُكْتَبُ عليهم ساعةَ ما يعملونها ، ثم تثبت في الصحف ، ثم إن الله تعالى يمحو منها ما لا ثواب له ولا عقاب ، قال الله تعالى : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد :٣٩] ، فالمحو والإثبات يكون من صحف الملائكة ، وأمُّ الكتاب هو اللوح المحفوظ ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣١٧) ، وأبوداود في كتاب السنة ، باب في القدر (٤٧٠٠) ، والترمذي في تفسير القرآن ، بابٌ ومن سورة نون والقلم (٣٣١٩) وقال : حديث حسن صحيح غريب.

وجاء بلفظ : « لما خلق الله القلم قال له : اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة » . أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٦٨) ، والضياء في المختارة (١٠/ ٣٣٣) ، وذكره الهيثمي في المجمع وقال : رجاله ثقات .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، بابُ حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم (٢٦٥٣).

وهو الذي كُتبتْ فيه المقاديرُ قديماً ، وهو الذي لا يُغَيَّر ما فيه.

* * *

« وللقدر أربع مراتب :

المرتبة الأولى : العلم ، فنؤمن بأن الله تعالى بكل شيء عليم ، علم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي ، فلا يتجدّد له علم بعد جهل، ولا يلحقه نسيان بعد علم » .

ذكر الشيخ رحمه الله أن للقدر أربع مراتب :

المرتبة الأولى : العلم . والثانية : الكتابة.

والثالثة : المشيئة . والرابعة : الخلق.

فنقول : إن الله علم الأشياء قبل وجودها ، وعلم سبحانه أعمال الخلق قبل أن يخلقهم ، وعلم عدد الرمل والتراب ، وعلم أعمال العباد ، وعلم مَنْ يُولَدُ له ، ومَنْ لا يُولَدُ له ، وعلم أعمال كل مولود ، وماذا يختم له به ؟ وعلم كل كلمة يتكلم بها الإنسان ؛ منذ أن يُخْلَقَ إلى أن يموت ، وعلم ما سوف يعمله من الحسنات أو السيئات .

كلُّ ذلك وغيرُه ؛ قد عَلِمه سبحانه وأحاط به قبل أن توجد الموجودات فهو سبحانه قد علم كلَّ شيء ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال :٧٥] ، فالله تبارك وتعالى يعلم ما كان وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون .

وهذا العلم هو العلم الأزليُّ القديم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يتجدَّد له علمٌ بعد جهل ، ولا يَلْحَقُه نسيانٌ بعد علم .

هذا بعض ما يتعلق بالمرتبة الأولى .

* * *

« **المرتبة الثانية : الكتابة ، فنؤمن بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة :** ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [**الحج : ٧٠**] » .

كتب الله في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة ، كما في الحديث: « **إنَّ أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب . فقال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة** »[١] .

وقد اختلفَ أهلُ العلم ؛ هل القلم أول المخلوقات ؟ لأن ظاهر هذا الحديث يدل على أن القلم أول المخلوقات ، وهذا القول الأول .

والقول الثاني : أن العرش أول المخلوقات ، يقول ابن القيم رحمه الله في النونية[٢] :

---

(١) تقدم تخريجه قريباً .

(٢) (ص/ ٦٧) : فصلٌ في اعتراضهم على القول بدوام فاعليّة الرب تعالى وكلامه والانفصال عنه . وانظر : الصفدية (٢/ ٧٩) والفتاوى (٢/ ٢٧٥، ١٨/ ٢١٣) ، ومنهاج السنة (١/ ٢٢٦) ، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص/ ١٩٠) ، والتبيان في أيمان القرآن (ص/ ٣٠٤) ، وشفاء العليل (١/ ١٣٨) ، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٤٠٥).

والنـاس مختلفـون في القلـم الـذي — كُتِـب القـضاء بـه مـن الـديَّان
هـل كـان قبـل العـرش أو هـو بعـده — قـولان عنـد أبي العَلا الهمـذاني
والحــق أن العــرش قَبْــلُ لأنــه — قبــلَ الكتابــة كــان ذا أركـــان

وهذا هو القول الصحيح ، فالعرش كان موجوداً قبل القلم ، وعلى هذا يكون معنى قوله ﷺ : « **أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب** » أي : إن أوَّلَ وقتٍ خُلِقَ فيه القلم ؛ أُمر فيه بالكتابة ، لا أنه أول المخلوقات .

ومن الأدلة على الكتابة ؛ قولُ الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج :٧٠] أي : إن كتابتَها قبل وجودِها يسيرةٌ على الله .

وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد :٢٢] أي : ما من مصيبةٍ إلا وهي مكتوبة قبل أن تُخْلَق بزمان.

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام :٥٩] .

* * *

« المرتبة الثالثة : المشيئة ، فنؤمن بأن الله تعالى قد شاء كل ما في السموات والأرض ، لا يكون شيء إلا بمشيئته ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » .

المشيئة : هي إرادة الشيء والعزم على فعله ، ونحن نؤمن بأن الله تعالى قد شاء كل ما في السماوات والأرض ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وفي الدعاء المأثور : « **ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن** »[1] .

وينشد الإمام الشافعي رحمه الله ضمن أبياتٍ له فيقول :

فما شئتَ كان وإنْ لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكُنْ[2]

فما شاءه العبد لا يكون إلا بمشيئة الله وإرادته ، وما شاءه الربُّ تبارك وتعالى لابد أن يكون ، وإن لم يشأه العبد .

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أن الإرادة قسمان : إرادة كونية قدرية ، وإرادة دينية شرعية .

فالإرادة القدرية الكونية ؛ يحصل مرادها ويقع ، ويدخل فيها ما يحبه الله وما لا يحبه ، فكفر الكافرين ، وبدع المبتدعين ، ومعاصي العصاة ؛ واقعةٌ بإرادة الله الكونية ، أي : إن الله قد أرادها ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام :١٤٩] .

---

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٥) .

(٢) أورده ابنُ عبدالبر في الاستذكار (٢٦/ ٩٨) ، والبيهقي في كتابه الاعتقاد (ص/ ١٦٣) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ٣٣٢) ، والسبكي في طبقات الشافعية (١/ ٢٩٥) ، و ابن كثير في البداية والنهاية (١٤/ ١٣٩) منسوباً إلى الإمام الشافعي رحم الله الجميع . وبعده :

خلقتَ العبادَ على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمسنْ

على ذا مَنَنْتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وذا لم تعِنْ

فهذه الإرادة - وهي الإرادة الكونية القدرية - لابد أن يقع مرادها ، فكل ما يحدث من الحوادث ؛ فإن الله عز وجل قد أراد وقوعها ، كالطاعات والمعاصي ، فالطاعات محبوبة ، والمعاصي مكروهة ، ولكنْ قَدَّرَ الله وجودَها ، وشاءها لبالغ حكمته عز وجل ، ولو شاء سبحانه عدمَ وقوعِها ؛ لم تقع .

ولكن الأَوْلى أن نقول : إن المعاصي لا تُنْسَبُ إلى الله ظاهراً ، فقد ذكر الله تعالى في كلام الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن :١٠] ، فعند ذِكْرِ الشرِّ لم يذكروا المريد ، بل قالوا : ﴿أُرِيدَ﴾ ، ولم يقولوا : أراد الله بهم شراً ، ومع هذا ؛ فإن كل ذلك يقع بإرادة الله الكونية القدرية .

أما الخير ؛ فإنه يُصرَّح بأنه مرادٌ لله ، كما في كلام الجن : ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ، والإرادة في هذه الآية هي الإرادة الكونية القدرية التي يلزم وقوع مرادها ، وقد يكون محبوباً ، وقد يكون مكروهاً .

أما الإرادة الشرعية الدينية ؛ فهي إرادة الله من العباد أن يؤمنوا ، وأن يعملوا أعمالاً صالحة ، فإن الله تبارك وتعالى قد أراد من الخلق كلِّهم أن يدخلوا في الإسلام ، وأن يعملوا الصالحات ، وأن يتركوا السيئات ، وأن يقولوا بالحق ، وأن يعملوا بطاعة الله .

ولا يلزم من الإرادة الدينية الشرعية وقوع المراد .

* * *

«**المرتبة الرابعة: الخلق، فنؤمن بأن الله تعالى** ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الزمر :٦٢-٦٣]» .

نؤمن بأن الله تعالى خالقُ كلِّ شيء ، كما قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ ، وهذا الخلق معناه التكوين .

والله تبارك وتعالى كما خَلَق العباد ؛ فإنه كذلك خَلَق أفعالهم ، وخَلَق أقوالهم ، فأفعالُنا وحركاتنا خلقٌ من خَلْقِ الله ، كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات :٩٦] أي : خلقكم وخلق أعمالكم .

فالله عز وجل خالق العباد ، وخالق أفعالهم ، وخالق إراداتهم ، وخالق أقوالهم ، فكل أفعال العباد خَلْقٌ من خَلْقِ الله ، ومع كونها خَلْقٌ من خَلْقِ الله؛ فإنها تُنْسَبُ إليهم ، ليثابوا على الخير ، ويعاقبوا على الشر .

* * *

«**وهذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من الله تعالى نفسه ولـما يكون من العباد ، فكل ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده ، والله تعالى قد شاءها وخلقها** ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨-٢٩] ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات :٩٦] » .

هذه المراتب الأربع: داخلة في أفعال الله ، وداخلة فيها أفعال العباد وأقوالهم .

وبيان ذلك أن يُقال : إن الله تبارك وتعالى علم أن زيداً سيتكلم بكذا وكذا، ثم كتب الله كلامه قبل أن يتكلَّم به ، ثم أراد الله منه هذا الكلام وهذا العمل ، ثم خلق منه هذا القول وهذا العمل .

فكل ما يكون من العباد ؛ فإنه داخل في هذه المراتب الأربع ، وكل ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك ، وهي الأعمال التي يتركونها ؛ فإنها معلومة لله تعالى ، عَلِمَها قبل أن توجد الخليقة ، وهي كذلك مكتوبة عنده في اللوح المحفوظ ، فالله تعالى قد شاءها وأرادها إرادةً كونية ، ثم خلقها سبحانه وأوجدها ، والله تعالى له المشيئة التامة ، ومشيئته سبحانه وتعالى غالبة على مشيئة العباد .

قال الله تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ ، فأثبت الله لنا مشيئة ، ثم قال سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فيخبر الله تعالى في هذه الآية أن مشيئةَ العبادِ مسبوقةٌ بمشيئة رب العالمين .

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، فيخبر الله تعالى في هذه الآية بأن الاقتتال ما وقع إلا بمشيئة الله وإرادته فلو شاء لهداهم ، ولكنه سبحانه وتعالى – لحكمته البالغة – يفعل ما يريد .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي :

لو شاء الله تعالى لمَا فعلوا تلك الأفعال التي نُسِبَتْ إليهم في أول الآية : ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ .

* * *

« ولكننا مع ذلك نؤمن بأن الله تعالى جعل للعبد اختياراً وقدرة بهما يكون الفعل » .

وهذا الذي ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ هو القول الذي تميز به أهلُ السنة على أولئك الطرفين : المجبرة والقدرية ؛ لأنهما في طرفي نقيض .

فالمجبرة يقولون : ليس للعبد حركة ، وليس له قدرة ؛ بل هو مجبورٌ على أفعاله .

والقدرية والمعتزلة يقولون : ليس لله قدرة على أفعال العباد ؛ بل العباد خالقون لأفعالهم .

وتوسَّط أهل السنة ، وجعلوا للعبد قدرة ، وجعلوا له إرادة ، وجعلوا إرادته داخلة في إرادة الله تعالى .

وبسبب هذه القدرة التي للعبد وبسبب هذا الاختيار الذي له ؛ يُنْسَبُ إليه فعلُه ، فيقال : هذا الذي زنا ، وهذا الذي سرق ، وهذا الذي صلى ، وهذا الذي صام .

* * *

« **والدليل على أن فعل العبد باختياره وقدرته أمور :**

الأول : قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة :٢٢٣]، وقوله: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة :٤٦] فأثبت للعبد إتياناً بمشيئته وإعداداً بإرادته » .

من الأدلة على أن للعبد فعلاً واختياراً وقدرة ؛ قولُه تعالى : ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ، فقوله : ﴿شِئْتُمْ﴾ يدلُّ على أن لهم مشيئة ، وأنهم مأمورون بامتثال ما أمر الله ، وكذلك قوله تعالى : ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي : لو أرادوا الخروج والغزو لأعدوا له عدة ، فدل على أن لهم قدرة ، وأنهم يستطيعون أن يعدوا عدة الخروج ، وأنهم كانوا مخيَّرين ، ولو لم يكن لهم قدرة واختيار ؛ لمَا خيَّرهم سبحانه .

* * *

« **الثاني : توجيه الأمر والنهي إلى العبد ، ولو لم يكن له اختيار وقدرة لكان توجيه ذلك إليه من التكليف بما لا يُطاق ، وهو أمر تأباه حكمة الله تعالى ورحمته وخبره الصادق في قوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة :٢٨٦] » .**

من الأدلة على أن للعبد فعلاً واختياراً وقدرة ؛ توجيه الأوامر والنواهي إلى العباد .

فمن الأمثلة على الأوامر ؛ قولُه تعالى : ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا

بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء :٣٦]، وقوله تعالى : ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء : ٢٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] .

ومن الأمثلة على النواهي ؛ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء :٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء :٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء :٣٣] ، أليست هذه الآيات - وأمثالها كثير - أوامرَ ونواهيَ؟ فكيف يُؤمر مَنْ لا قدرة له ؟ وكيف يُؤمر مَنْ ليس له أيُّ اختيار ؟

إن توجيه الأمر لمن هذه حاله ؛ كتوجيه الأمر للجمادات .

فهل يقال لهذه العمود : تحرَّكي عن مكانك ؟ وهل يقال للشجرة أو للصخرة : تحرَّكي أو تكلَّمي أو انتقلي هنا أو هناك؟ لأن كلام أولئك الجبرية يُشَبِّه الإنسان بالشجر والجماد .

والله تبارك وتعالى وجَّه الأوامر والنواهي إلى العباد ، فلو لم يكن لهم اختيار وقدرة ؛ لكان توجيه ذلك إليهم من التكليف بما لا يطاق ، وهذا أمر تأباه حكمةُ الله تعالى ، ورحمتُه وخبرُه الصادقُ في قوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ، فلا يؤمر إلا من هو قادر مكلَّف .

* * *

« الثالث : مدح المحسن على إحسانه وذم المسيء على إساءته ، وإثابة كل منهما بما يستحق ، ولولا أن الفعل يقع بإرادة العبد واختياره

لكان مدح المحسن عبثاً ، وعقوبة المسيء ظلماً ، والله تعالى منزَّهٌ عن العبث والظلم » .

من الأدلة على أن للعبد فعلاً واختياراً وقدرةً ؛ مدحُ المحسن على إحسانه ، وذمُّ المسيء على إساءته ، وترتيبُ الجزاء على ذلك ، قال تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم :٣١] ، فأسند إلى هؤلاء إحساناً ، وأسند إلى هؤلاء إساءة .

وأخبر الله تعالى بأنه يجزيهم ، قال تعالى : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس :٢٦] ، ثم قال بعدها : ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس :٢٧] ، فأخبر تعالى بأنه يجزي هؤلاء وهؤلاء ، وأنه يُثِيبُ كُلاً بما يستحقه ، ولولا أن الفعل يقع بإرادة العبد واختياره ؛ لكان مدحُ المحسن عبثاً ، وعقوبةُ المسيء ظلماً ؛ لأن العبد في هذه الحالة لا يُنْسَبُ إليه أيُّ فعل ؛ لأنه لا فِعْلَ له ، فيكون الله ظالماً له ، حيث إنه عاقبه على فعلٍ ليس باختياره ؛ بل هو مظلوم ومقهور ، وهذا كلُّه محالٌ غيرُ ممكن ؛ لأن الله تعالى منزَّه عن الظلم ، ومنزَّه عن العبث .

* * *

« الرابع : أن الله تعالى أرسل الرسل ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء :١٦٥] ، ولولا أن فعل العبد يقع بإرادته واختياره ما بطلت حُجَّته بإرسال الرسل » .

من الأدلة على أن للعبد فعلاً واختياراً وقدرة ؛ أن الله أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، كما قال تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ ، فالرسل يقولون للناس: اعبدوا ربكم ، ولا تشركوا به شيئاً ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، فلولا أن للعبد قدرة وإرادة واختياراً ؛ لما طُلِبَ منه ذلك، ولبطلتْ حجةُ الله على خلقه، ولجاز للعبد أن يقول : كيف تأمرني يا ربي وأنا لا أستطيع ، وليس لي قدرة ، وليس لي حركة ، بل أنت يا ربي الذي تقدِّر وتحرِّك وتصرِّف من تشاء ؟

وهذا هو قول أولئك الجبرية الذين يدَّعون أن العبد مجبور .

* * *

« الخامس : أن كل فاعل يحسُّ أنه يفعل الشيء أو يتركه بدون أي شعور بإكراه ، فهو يقوم ويقعد ، ويدخل ويخرج ، ويسافر ويقيم بمحض إرادته ، ولا يشعر بأن أحداً يُكرهه على ذلك ، بل يفرق تفريقاً واقعياً بين أن يفعل الشيء باختياره وبين أن يكرهه عليه مُكرِهٌ » .

من الأدلة على أن للعبد فعلاً واختياراً وقدرة ؛ أن كل فاعل يحس أنه يفعل الشيء أو يتركه ؛ بدون أي شعور بإكراه ، فهو يقوم على المكاسب ، ويقوم على الأعمال ، وليس هناك ما يُكْرِهُهُ ويُلْجِئه ، فليس هناك مثلاً من يحرِّك لسانه ، ولا يحس بأن أحداً يحرِّك يديه ورجليه ، فدلَّ على أن له قدرة واختياراً .

فهو يقوم ويقعد ، ويدخل ويخرج ، ويسافر ويقيم ، ولا يشعر بأن أحداً يُجْبِرُه على ذلك ، ولا يحسُّ بأن أحداً يُكْرِهُهُ أو يُلْجِئه ، فهو يفرِّق تفريقاً واقعياً بين أن يفعل الشيء باختياره ، وبين أن يُكْرِهَهُ عليه مُكْرِه.

مثال ذلك : لو أن أحداً أكره رجلاً على شرب الخمر ، وألجأه وأجْبَرَه على شربه ؛ لعرف الشارب أنه مُكْرَهٌ ، وأن الشُّرْبَ وقع دون اختياره .

أما إذا اندفعت إليه نفسه ، وشرب الخمر بمحض اختياره وإرادته ؛ لشعر بأنه مذنب ، ولعلم أن الشرب وقع باختياره وإرادته .

وكذلك إذا أقدم رجل على قتل نفس بريئة ، وفعل ذلك بمحض إرادته واختياره ؛ لشعر بأنه مذنب .

أما إذا أُكره على ذلك ، وأعطي السيف ، وقيل له: اقتل هذا ، وإن لم تقتله قتلناك ؛ لعَلِمَ أنه مُكْرَه .

وفي مثل هذه الحالات ؛ يفرِّق المرءُ تفريقاً واقعياً بين أن يفعل الشيء باختياره ، وبين أن يُكْرِهَهُ عليه مُكْرِه .

* * *

« وكذلك فرَّق الشرع بينهما تفريقاً حكمياً ، فلم يؤاخذ الفاعل بما فعله مكرهاً عليه فيما يتعلق بحق الله تعالى » .

فرَّقَ الشرعُ بين الإكراه والاختيار تفريقاً حكمياً ، فلا يُؤاخَذ الفاعل بما فعله مكرهاً عليه ، وذلك فيما يتعلق بحقوق الله .

قال الله تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل :١٠٦] ، ففي هذه الآية رفعُ الحرجِ عن الـمُكْرَه.

وقال النبي ﷺ : « إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] ؛ فوضع الخطأ عن المُكْرَهين ، ورفع الحرج عنهم .

* * *

« ونرى أنه لا حجة للعاصي على معصيته بقدر الله تعالى ؛ لأن العاصي يقدم على المعصية باختياره ، من غير أن يعلم أن الله تعالى قدَّرها عليه ، إذ لا يعلم أحد قدر الله تعالى إلا بعد وقوع مقدوره ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان :٣٤] فكيف يصح الاحتجاج بحجة لا يعلمها المحتجُّ بها حين إقدامه على ما اعتذر بها عنه » .

كثيراً ما ننصحُ بعضَهم ، ونأمرهم بالطاعة والعبادة ؛ فيقول : إن الله ما هداني ، ونحن نقول : إن لك اختياراً وقدرة ، وإنك تقدر على أن تدخل باب الهداية ، فلا يصح للعاصي أن يحتجَّ بقدر الله ، فالعاصي يُقْدِمُ على المعصية باختياره دون أن يعلم أن الله قدَّرها عليه .

ولا يعلمُ أحدٌ قَدَرَ الله ؛ إلا بعد وقوع المقدور ، فأنت لا تعلم أن الله قدَّر

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق ، باب طلاق المكرَه والناسي (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه . وقال ابن كثير في تحفة الطالب (ص/ ٢٢٣) : إسناده جيِّد .

لك المعصية أو الطاعة ؛ حتى تقع منك إحداهما ، يقول الله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي : ماذا تفعل غداً.

فلا يصح للعاصي احتجاجه بالقدر على معصيته ؛ لأنه لا يعلم أن المعصية تقع منه إلا إذا وقع فيها .

* * *

« **وقد أبطل الله تعالى هذه الحجة بقوله :** ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ **[الأنعام : ١٤٨]** » .

أبطل الله هذه الحجة في هذه الآيات من سورة الأنعام ، وكذلك في غيرها من الآيات ، قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ ، فهكذا يحتجُّون بالقدر على إشراكهم بالله ويقولون : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي : كما كذَّب هؤلاء المشركون بالحق الذي جاء به محمد ﷺ ؛ فكذلك كذّب مَنْ قَبْلَهم مِنَ الأمم بالحق الذي جاءتهم به رسلُهم ، وهؤلاء المشركون فعلوا هذه الأفعال وكذَّبوا واستمرُّوا على التكذيب ؛ ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وعذابنا .

قال الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا

ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي : ما عندكم إلا التخرُّص والقول الباطل ، ومع ذلك فإن لله الحجة البالغة ، كما قال تعالى بعدها : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام :١٤٩] .

* * *

«ونقول للعاصي المحتج بالقدر : لماذا لم تُقْدِم على الطاعة مقدِّراً أن الله تعالى قد كتبها لك ، فإنه لا فرق بينها وبين المعصية في الجهل بالمقدور قبل صدور الفعل منك ؟ » .

نقول للعاصي الذي يحتج بالقدر : لماذا لم تفعل الطاعة مقدِّراً أن الله كتبها لك ؟ فإن الله أعطاك اختياراً وإرادة ، وأنت تعلم أن هذه طاعة وتلك معصية ، فلماذا آثرت المعصية وقدَّمتها على الطاعة ؟ إذ لا فرق بين الطاعة والمعصية في الجهل بالمقدور ، وأنت لا تدري أكُتِبْتَ مع العصاة أم المطيعين؟

* * *

« ولهذا لما أخبر النبي ﷺ الصحابة بأن كل واحد قد كُتِبَ مقعدُه من الجنة ومقعده من النار قالوا : أفلا نتكل وندَعُ العملَ ؟ قال : « لا ، اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له »[1] » .

لمَّا أخبر النبيُّ ﷺ الصحابةَ بأن كلَّ واحدٍ قد كَتَبَ الله مقعدَه من الجنة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : موعظة المحدِّث عند القبر (١٣٦٢) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧) .

ومقعده من النار ؛ قال الصحابة : أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا وندع العمل ؟ إذا كان كلٌّ منا قد كُتِبَ له مقعده إما في الجنة وإما في النار ؛ فلا حاجة إلى العمل . فقال ﷺ : « **اعملوا فكل ميسَّر لما خُلِقَ له** » . فأمرهم بالعمل ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾ [الليل : ٥-١٠] .

* * *

« ونقول للعاصي المحتج بالقدر : لو كنت تريد السفر لمكة وكان لها طريقان ، أخبرك الصادق أن أحدهما مخوف صعب ، والثاني آمن سهل ، فإنك ستسلك الثاني ولا يمكن أن تسلك الأول وتقول : إنه مقدَّر عليَّ ؛ ولو فعلت لعدَّك الناس في قسم المجانين » .

جاء عن عمر رضي الله عنه[١] أنه لما توجَّه إلى الشام ، وذُكِرَ له أن الوباء وقع فيها وهو الطاعون ؛ استشار الصحابة رضي الله عنهم ، ثم عزم على الرجوع ، فقال له أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم ، نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله ، ثم ضرب رضي الله عنه مثلاً فقال : لو كان لك إبلٌ ، وكان هناك واديان ؛ أحدهما مُجْدِبٌ والآخر

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة (٢٢١٩) .

مخُصِبٌ ، فستختارُ المخصب المربع ، وهذا اختيار منك.

* * *

« ونقول له أيضاً : لو عُرض عليك وظيفتان إحداهما ذات مرتب أكثر ، فإنك سوف تعمل فيها دون الناقصة ، فكيف تختار لنفسك في عمل الآخرة ما هو الأدنى ثم تحتج بالقدر ؟ » .

نقول للعاصي المحتج بالقدر : لو عُرِضَ عليك وظيفتان ، إحداهما ذات مرتب أكثر ، فإنك سوف تعمل فيها دون الناقصة ، أليس هذا دليلاً على أن لك اختياراً وإرادة ؟ فإذا كان لك في أمور الدنيا اختيار وإرادة ، فلم لا يكون لك في أمور الآخرة اختيار وإرادة ؟

* * *

« ونقول له أيضاً : نراك إذا أصبت بمرض جسمي طرقت باب كل طبيب لعلاجك ، وصبرت على ما ينالك من ألم عملية الجراحة وعلى مرارة الدواء . فلماذا لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟ » .

نقول للعاصي المحتج بالقدر : نراك إذا أصابك مرض جسدي ؛ طرقتَ أبواب الأطباء بحثاً عن العلاج ، وصبرت على آلام الجراحة ، وعلى مرارة الدواء ؛ أليس هذا دليلاً على أن لك اختياراً وإرادة ؟ فلماذا لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟

فإذا سعيت في علاج ألم الظاهر الذي هو مرض البدن ، فاسْعَ كذلك في

علاج مرض الباطن وهو مرض القلب ، فإنه لا نجاة للعبد إلا بنجاة قلبه وسلامته ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء] ، وعلى هذا ؛ فإنه ليس للعاصي أن يحتجَّ بالقدر على فعله للذنوب والمعاصي ، واحتجاجُه بالقدر على ذلك ؛ مخالفٌ لمقتضى الإيمان والشرع ، والعقل الصحيح[1] .

* * *

« ونؤمن بأنّ الشر لا يُنسب إلى الله تعالى لكمال رحمته وحكمته ، قال النبي ﷺ : « والشر ليس إليك » رواه مسلم[2] . فنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شر أبداً ؛ لأنه صادر عن رحمة وحكمة » .

إذا قدَّر الله تبارك وتعالى أمراضاً أو مصائب أو عاهاتٍ أو جدباً أو قحطاً أو موتاً ؛ فهل يقال : إن الله ظالـمٌ للعباد ، حيث سلَّط عليهم هذه الأمراض ؟ لا نقول ذلك ، بل نقول : لله الحكمة البالغة في ذلك ، فإنه سبحانه حكيم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها ، ولا يُعترض على فِعْلِ الله ، فلا يُقال: ليت الله ما خلق إبليس ! ولا يُقال : لماذا خلق الله الذئاب والأسود التي تعدو وتفترس أموالنا وأموال الناس ؟ ولا يُقال : لماذا خلق الله الحيَّات

(١) انظر : مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٢/ ٣٢٣ وما بعدها ، ٨/ ١٧٩، ٢٣٧) ، ومنهاج السنة (٢/ ٢٦٦ وما بعدها) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل (٧٧١) .

والعقارب وذوات السموم ؟

بل نقول : لله الحكمة البالغة ، فإنه يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وهو سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ؛ بل إن كلَّ مخلوقٍ فيه عبرة وموعظة للعباد ، ولو لم يكن في ذلك إلا العبرة بخلقِ الله الأضداد .

والله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء] ، ويقول عز شأنه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان] .

وقد كان من دعاء النبي ﷺ إذا قام إلى صلاته بالليل ؛ أن يقول : «**والخير كله في يديك والشر ليس إليك**» أي : إن قضاءَ الله عز وجل ليس شراً ، ولو كانت فيه أضرار ؛ فإنها لحكمة.

فإنَّ نَفْسَ قضاءِ الله تعالى ليس فيه شرٌّ أبداً ، بل إنه خيرٌ صادرٌ عن حكمةٍ ورحمة ، أما الشر فإنه في آثار ذلك .

فالأمراض مثلاً تُشاهَدُ على أنها شرور، ولكن تقديرها فيه مصلحة وحكمة، وكذلك تسليط الأعداء ؛ فإن فيه أضراراً ، ولكن الله تعالى قدَّر كلَّ ذلك لحكمةٍ يعلمها سبحانه ورحمةٍ بعباده ، كما بيَّن ذلك عز شأنه فقال سبحانه :

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ

﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران] .

* * *

« وإنما يكون الشر في مقضياته ، لقول النبي ﷺ في دعاء القنوت الذي علّمه الحسن : « وقني شر ما قضيت »[1] . فأضاف الشر إلى ما قضاه ، ومع هذا فإن الشر في المقضيات ليس شراً خالصاً محضاً ، بل هو شر في محله من وجه ، خير من وجه ، أو شر في محله ، خير في محل آخر » .

جاء في دعاء القنوت الذي علمه النبيُّ ﷺ ابنَ ابنتِه الحسن رضي الله عنه قوله ﷺ : «**وقني شر ما قضيت** » أي : قني شرَّ الشرور التي تقضيها ، فأضاف الشر إلى ما قضاه ، ولا يقال : قني شرَّك ، ومع هذا ؛ فإن الشر الذي في المقضيَّات ليس شراً محضاً خالصاً ، إنما هو شر من وجه ، خير من وجه ، شر في محله، خير في محلٍ آخر . وكيف يكون الشر خيراً من وجه ؟ يظهر معنى ذلك في الأمراض مثلاً ، فإذا أصيب المرء بالأمراض ؛ فإنها خير له ، لمَا فيها من تكفير السيئات ، ثم إن هذه الأمراض فيها ابتلاء للعبد ،

---

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة ، باب القنوت في الوتر (١٤٢٥) ، والترمذي في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في القنوت في الوتر (٤٦٤) ، والنسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب الدعاء في الوتر (١٧٤٦) ، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في القنوت في الوتر (١١٧٨) . وقال الترمذي : حديث حسن .

حيث يؤمر بالصبر على الابتلاء ؛ لأن الذين لا يصبرون ؛ كأنهم يطعنون في حكمة الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

* * *

« فالفساد في الأرض من : الجدب والمرض والفقر والخوف شر ، لكنه خير في محل آخر ، قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم :٤١] » .

الفقر والخوف والجدب والمرض شرٌّ من حيث الظاهر ، حيث إن الناس يتضرَّرُون منه ، لكنه خيرٌ في محلٍّ آخر ، حيث يتذكر الناسُ أن لهم رباً يتصرَّف في هذا الكون ، فيَحْمِلُهم هذا على دعاء ربهم ، والخوف من ذنوبهم ، كما قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم :٤١] . أي : إن هذا الفساد ما وقع إلا بسبب ذنوبكم ، وبسبب ما كسبتم وما عملتم ، حتى يُذِيقَكُم جزاء أعمالكم في الدنيا .

وإذا عاقبكم ربكم بها في الدنيا ، فهذا أهون من عقابكم بها في الآخرة.

* * *

« وقطع يد السارق ورجم الزاني شر بالنسبة للسارق والزاني في قطع اليد وإزهاق النفس ، لكنه خير لهما من وجه آخر ، حيث يكون كفّارة لهما فلا يجمع لهما بين عقوبَتي الدنيا والآخرة ، وهو أيضاً خيرٌ في محل آخر ، حيث إن فيه حماية الأموال والأعراض والأنساب » .

ذُكِرَ أن سارقاً رُفِعَ إلى عمر رضي الله عنه ، فأمر بقطع يده ، فقال ذلك السارق : إن هذا بقدر الله ، فقال عمر : أنت سرقت بقدر الله ، ونحن نقطع يدك بقدر الله .

فكلٌّ من احتجَّ بالقدر ؛ يُحْتَجُّ عليه أيضاً بقدر آخر .

وذُكِرَ أن رجلاً أعمى له خادم مملوك يقوده ، فكان يتعثّر به ، ويتعمد أن يسلك به الحفر والحجارة ، فيسقط كثيراً لأنه ضرير ، فعاتب خادمه على ذلك، فقال الغلام : هذا قدر ، فلما قال الغلام ذلك ؛ ضربه سيدُه الأعمى بعصاه ضربةً شديدةً حتى انصرع ، فقال الغلام : لم هذا يا عم ؟ فقال الأعمى : هذا قدر ، أنت قلت إنَّ فِعْلَكَ معي قدر ، وفعلي معك أيضاً قدر ، تحتج بالقدر ونحتج بالقدر عليك . فلا حجة بالقدر على المعاصي ، ولو كَثُرَ الذين يحتجون به في هذه الأزمنة.

ذكر أن يهودياً أو ذمياً نظم أبياتاً ، ورفعها إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، والتي يقول في أولها [1] :

---

(١) مجموع الفتاوى : (٨/ ٢٤٥) .

أيَـا علـماء الـدين ذمِّــيٌّ ديـنِكم ... تحــيَّر دُلُّــوه بأوضــحِ حجـــةِ
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ... ولم يَرضَهُ مني فما وجه حيلتي ؟
دعاني وسدَّ الباب عني فهل إلى ... دخـولي سـبيلٌ بيِّنـوا لي قـضيتي

فرَدَّ عليه شيخ الإسلام رحمه الله نظماً في القصيدة المشهورة بـ«التائية»، ومماَّ جاء في أولها :

سـؤالك يـا هـذا سـؤالُ معانـدٍ ... مخاصمِ ربِّ العرش باري البريـةِ
ويُـدْعى خـصومُ الله يـومَ معـادهم ... إلى النـار طُـرّاً معـشر القدريـةِ
سـواءٌ نفـوه أو سـعوا ليخاصـموا ... بــه الله أو مــارَوْا بــه للــشريعةِ

وهي قصيدة طويلة في نحو مائة وعشرين بيتاً ، وقد شرحها الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله ، وشرحه مطبوع .

ويحتجُّ فيها شيخُ الإسلام بأفعال العباد ، ويُشَنِّع على السائل احتجاجَه بالقدر في الأمور المحرَّمة .

وقد أشار ابن القيم رحمه الله إلى ذلك بقولـه(١) :

وعنـد مـراد الحـق تفنـى كميـتٍ ... وعند مراد النفس تـسدي وتلحـمُ
وعند خلاف الأمـر تحـتجُّ بالقـضا ... ظهيراً على الرحمن للجبر تـزعمُ

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١١١) .

ويُذْكَرُ من احتجاج هؤلاء القدرية قولُ بعضهم[1] :

ألقاه في اليَمِّ مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتلَّ بالماء

ويَذْكُرُ ابنُ القيم رحمه الله قولَ بعض أولئك القدرية[2] :

وضعوا اللحم للبُزَا ... ةِ على ذروتي عَدَنْ

ثم لاموا البُزَاة إذ ... خلعوا عنهمُ الرَّسَنْ

لو أرادوا صيانتي ... ستروا وَجهك الحَسَنْ

وعلى كلِّ حال ؛ فإن المرء إذا أراد الخير فإنه يَجْتَهِدُ فيه ، ولا يستسلم للفقر والمرض ، ولا يقول : هذا قدر ويجلس ، بل يلتمس الرزق ويعمل له.

ويُنْكَرُ على ذلك الشاعر الذي بالغ في الاستسلام ، حيث يقول[1] :

---

(١) ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان (٢/ ١٤٣) ، والصفدي في الوافي بالوفيات (١٣/ ٤٦) منسوباً إلى الحسين بن منصور الحلَّاج المتوفى سنة (٣٠٩) .

وقبله بيت آخر :

ما يفعل العبد والأقدار جاريةٌ ... عليه في كل حال أيها الرائي

وذكره بلا نسبة ابن تيمية في الفتاوى (٨/ ٤٤٦) ، وابن القيم في شفاء العليل (١/ ١٢٦) ، ومدارج السالكين (١/ ٢٦٢) ، وطريق الهجرتين (١/ ١٧٩) .

وانظر: ديوانه (ص/ ٢٦) .

(٢) طريق الهجرتين (١/ ١٨٠) ، ومدارج السالكين (١/ ٢٦٢) . والبزاة جمع ، واحدها بازيٌّ وهو ضربٌ من الصقور ، وذِرْوةُ كلِّ شيء أعلاه ، والرَّسَن هو الحبلُ الذي يُقادُ به البعير ونحوه .

لقد علمت وما الإشراف من خلقي	أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعْيِيني تطلبه	ولو جلست أتاني لا يعنيني
لكسرة من يبيس الخبز تشبعني	وشربة من قراح الماء ترويني
وقطع من نسيج الصوف تسترني	حيّاً وإن مِتّ تكفيني لتكفيني

ونحن نقول : إن هذا فيه شيء من المبالغة على ترك الأسباب ، بل على الإنسان أن يفعل الأسباب ، كما قال ﷺ : « **لو أنكم تتوكَّلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً** »[٢] .

فالطير لا تجلس في أوكارها ولا في وكَنَاتِها ، بل تذهبُ وتلتمسُ الرزق، وهكذا الإنسان يذهبُ ويلتمسُ الرزق .

قال الشيخ رحمه الله : « وهو أيضاً » أي : قطعُ يد السارق ، ورجم الزاني «خير في محل آخر ، حيث إن فيه حماية الأموال والأعراض والأنساب» .

ذُكِرَ أن أبا العلاء المعرِّي الشاعر الماجن ؛ اعترض على الشرع في قطع يد السارق ، وقال[٣] :

---

(١) أورده بنحوه التَّنوخي في الفرج بعد الشدة (٣/ ١٤٨) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ١٩٥) منسوباً إلى عروة بن أذينة .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، بابٌ في التوكل على الله (٢٣٤٤) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب التوكل واليقين (٤١٦٤). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) البيتان في اللزوميَّات (١/ ٥٤٤) ، وممَّن ذكرَهما عنه : ابنُ كثير في تفسيره (٢/ ٥٧) =

يـد بخمـس مئـين عَـسْجَدٍ فُـدِيَتْ   مـا بالهـا قُطعـت في ربـع دينـار ؟

تنـاقضٌ مـا لنـا إلا الـسكوتُ لــه   وأنْ نعــوذَ بمولانــا مـــن النــار

فرد عليه بعضهم بقولـه [1] :

صـيانةُ الـنفس أغلَتْهـا وأرْخَـصَها   خيانـةُ المـال فـانظر حكمـة البـاري

* * *

= عند الآية (٣٨) من سورة المائدة ، وفي البداية والنهاية (١٥/ ٧٤٦) ، وابـنُ حجـر في لسان الميزان (١/ ٢٠٥) .

(١) ذكـره بنحـوه ابـنُ حجـر في الفـتح (١٢/ ١١٩) ، والـصَّاوي في حاشـيته (١/ ٥٦١) ، والمقبليُّ في العلم الشامخ (٩٧-٩٨) منسوباً إلى القاضي عبد الوهاب المالكي.

ونسبه الصَّفدي في الوافي بالوفيات (٧/ ١١٠) لعَلم الدين السَّخاوي المقرئ . وقيل: إنه منسوب للشريف الرَّضي ، كـما أفـاده المقـبلي ، وكـما نـسبه إليـه القزوينـيُّ في آثـار البلاد (ص/ ٢٧٣) ، والعيدروسي في النور السافر (ص/ ٣٦٦) ولم أجده في ديوانه .

وانظر : إعلام الموقعين لابن القيم (٣/ ٢٨٦-٢٨٩) .

فصـــل

«هــذه العقيــدة الســامية المتــضمنة لهــذه الأصــول العظيمــة تثمــر لمعتقدها ثمرات جليلة كثيرة .

فالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبَين للقيام بأمره واجتناب نهيه ، والقيام بأمر الله تعالى واجتناب نهيه يحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **[النحل :٩٧] » .**

لما أنهى الشيخُ رحمه الله العقيدةَ ؛ ذكر خُلاصَتَها ، وأن كل ما تقدم من تفاصيل المسائل المبنيَّة على نصوص الكتاب والسنة ؛ يورثُ ثمراتٍ عظيمة ، من الرضا عن الله ، ورجاء ثوابه ، والخوف من سخطه وعقابه ، وكذا الإحسان إلى خلقه والرحمة بهم .

فبدأ بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته ، وأنه يثمر للعبد محبة الله ، فإذا عرف العبد أسماء الله وصفاته ؛ فإنه يحبُّه ويعظِّمه ، ومحبةُ الله سبحانه وتعظيمُه توجبان القيامَ بأوامر الله والاجتنابَ لنواهيه ، والذي يحصل بسببهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ فوعدهم الله بالحياة الطيبة في الدنيا ، وبالأجر العظيم في الآخرة .

* * *

« ومن ثمرات الإيمان بالملائكة :

أولاً : العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقوته وسلطانه » .

من ثمرات الإيمان بالملائكة ؛ الإيمانُ بعظمة الخالق تبارك وتعالى ، فإن النبي ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام قد سدّ الأفق[1] ، وقد أمره الله بقلع قرى قوم لوط ، فقلعها ورفعها ، ثم قلبها على جناح واحد[2] ، فهذه عظمةُ مَلَكٍ واحد ؛ فكيف بعظمةِ الخالق ؟

* * *

« ثانياً : شكره تعالى على عنايته بعباده ، حيث وكّل بهم من هؤلاء الملائكة مَنْ يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم».

---

(١) تقدم تخريجه (ص/ ٩٧) .

(٢) أخرج ابنُ جرير بسنده في التفسير (١٢/ ٥٣٦) عن قتادة قال : « بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه ، فانتسف به أرضَهم بما فيها من قصورها ودوابِّها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها ... فحواها وطواها في جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا ، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب وكانوا أربعة آلاف ألف ، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ، دمدم بعضها على بعض ...» وفي رواية أخرى عن السدِّيِّ: «فاقتلع الأرض من سبع أرضين» اهـ.

قال تعالى : ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد :١١] .

* * *

« ثالثاً : محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل واستغفارهم للمؤمنين » .

قال الله تعالى عن الملائكة: ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [الشورى: ٥] ، وذكر الله تعالى قولهم : ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [غافر :٧] .

* * *

« ومن ثمرات الإيمان بالكتاب :

أولاً : العلم برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه ، حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به » .

دلّ ذلك على أن الله تبارك وتعالى لم يهمل عباده ، بل أقام عليهم الحجة حيث أنزل عليهم هذه الكتب .

* * *

« ثانياً : ظهور حكمة الله تعالى ، حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها ، وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم ، مناسباً لجميع

الخلق في كل عصر ومكان إلى يوم القيامة » .

من حكمة الله تبارك وتعالى أن أمر أهلَ كلِّ زمانٍ وشرعَ لهم ما يناسبهم، حتى ختم الشرائع ونسخها بالقرآن الكريم ، وما الكتب التي قبله إلا مؤقتة بزمن .

* * *

« ثالثاً : شكر نعمة الله تعالى على ذلك » .

أي : شكر الله تعالى على أن أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة .

* * *

« ومن ثمرات الإيمان بالرسل :

أولاً : العلم برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه ، حيث أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد » .

دلّ هذا على أن الله تبارك وتعالى لم يهمل عباده ، بل أقام عليهم البراهين والحجج ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

* * *

« ثانياً : شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى » .

فنشكر الله على إرسال الرسل ، فهي نعمة من نعم الله العظيمة ، والتي بها نكون قائمين بحق الله تعالى .

* * *

« ثالثاً : محبة الرسل وتوقيرهم والثناء عليهم بما يليق بهم ؛ لأنهم رسل الله تعالى وخلاصة عبيده ، قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده والصبر على أذاهم » .

المؤمنون يُحِبُّون رُسُلَ الله الكرام ويوقِّرونهم ، كما في قوله تعالى : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح :٩] ، فالتعزير والتوقير للرسول ﷺ .

وتوقيرهم عليهم السلام يكون باحترامهم والثناء عليهم بما يليق بهم ، والدعاء لهم والصلاة والسلام عليهم ؛ لأنهم رسل الله وخلاصة عباده ؛ قاموا بعبادته بأنفسهم وبلَّغوا رسالته ، ونصحوا لعباده ، وصبروا على الأذى ، فلذلك نُحِبُّهم ونُوقِّرهم ونُسلِّم عليهم .

* * *

« ومن ثمرات الإيمان باليوم الآخر :

أولاً : الحرص على طاعة الله تعالى رغبة في ثواب ذلك اليوم ، والبعد عن معصيته خوفاً من عقاب ذلك اليوم » .

وهكذا المؤمنون حريصون على طاعة الله ، بعيدون عن معصيته ، راجون للفوزِ برضا الله في ذلك اليوم ، كما قال تعالى عن عباده المؤمنين : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان] ، وذكر عنهم سبحانه

أنهم يقولون : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ ﴾ [الإنسان] .

* * *

« ثانياً : تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها » .

إذا فاتك نعيم الدنيا وعشت في بؤس وفقر ؛ تذكَّر أن لك عند الله ثواب الآخرة ، حيث إنك آمنت وصبرت ، فترجو بذلك نعيم الآخرة وثوابها .

* * *

« ومن ثمرات الإيمان بالقدر :

أولاً : الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب ؛ لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله وقدره » .

فأنت عليك فعلُ الأسباب، والله هو مُسبِّبُ الأسباب ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ ﴾ [الواقعة : ٦٣-٦٤] .

* * *

« ثانياً : راحة النفس وطمأنينة القلب ؛ لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى ، وأن المكروه كائن لا محالة ، ارتاحت النفس واطمأن

القلب ورضي بقضاء الرب ، فلا أحد أطيب عيشاً وأريح نفساً وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر » .

إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه رضي بقضاء الله وقدره .

أما قبل وقوع الحادث وقبل فعل الأمر ؛ فإن العبد يجتهد في ما يقدر عليه ويحرص على ما ينفعه ، قال ﷺ : « **احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قَدَرُ الله وما شاء فعل** »[1] .

فالواجب على الإنسان الاجتهاد في العمل ، وإذا حصل له إخفاق أو حصل له خسران ؛ فإنه يقول : هذا قدر الله ، والله تعالى يقول : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد :٢٣] ، والمؤمن يعلم أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، ويعلم أن ما قدَّره الله فهو كائن لا محالة، فترتاح نفسه، ويطمئن قلبه ، ويرضى بقضاء ربه عز وجل.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب الإيمان بالقدر والإذعان له (٢٦٦٤) .

« ثالثاً : طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد ؛ لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدَّره من أسباب الخير والنجاح ، فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب » .

فالمؤمن لا تعجبه نفسه ، ولا يتمدَّح بفكره ولا بذكائه ولا بتجربته ، ولا يقول كما قال قارون : ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص :٧٨] ؛ لأن حصول ذلك إنما هو بما قدَّره الله لك ، وبما تفضَّل به عليك ، وبما هيَّأه لك من أسباب الخير والنجاح .

وإذا أنعم الله عليك بنعمة ؛ فاحمدِ الله عليها ، وقل كما قال نبي الله سليمان عليه السلام : ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ [النمل : ٤٠] ، فلم يغترَّ عليه السلام بفضل الله عليه من الملك والسلطان ، ولم تُعجبه نفسه ؛ بل حَمِدَ الله على الفضل والنعمة .

* * *

« رابعاً : طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه ؛ لأن ذلك بقضاء الله تعالى الذي له ملك السماوات والأرض وهو كائن لا محالة ، فيصبر على ذلك ويحتسب الأجر ، وإلى هذا يشير الله تعالى بقوله : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ

مِن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣] » .

إذا أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، أو يا ليتني تقدمت ، أو يا ليتني تأخرت ، فالمؤمن إذا فاته مراده أو حصل له مكروه ، فإنه لا يقلق ولا يضجر ، بل يعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره الذي له ملك السماوات والأرض ، ويجب أن يعلم أن ذلك كائن لا محالة ، فيصبر على ذلك ويحتسب الأجر من الله تعالى ، قال تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أي : لكيلا تحزنوا وتقولوا : فاتتنا الأرزاق ، فاتتنا الأرباح ، ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أي : فرحَ بَطَرٍ وأشَر ، وتقولوا : هذا حصل بسبب جهدنا ، وهذا بسبب كسبنا ، وهذا بسبب قوتنا ، فلا تفرحوا بالخير وتعجبوا به ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ والمختال الفخور : هو المتكبر الفظُّ الغليظ ، المختال في نفسه ، الفخور على غيره .

* * *

« فنسأل الله تعالى أن يثبِّتنا على هذه العقيدة ، وأن يحقق لنا ثمراتها ويزيدنا من فضله ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، وأن يهب لنا منه رحمة ، إنه هو الوهاب ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

تمت بقلم مؤلفها

محمد الصالح العثيمين

في ٣٠ شوال ١٤٠٤هـ » .

ختاماً ، نوصي طلاب العلم وغيرهم أن يجدُّوا ويجتهدوا في تَعَلُّمِ العلم، وأن يخلصوا نياتهم ، وأن يجتهدوا في علم الشريعة الذي هو ميراث الأنبياء، وأن يعملوا بما علموه ؛ فإن هذه هي الثمرة ، فإن العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر .

وليكونوا قدوة لآبائهم ولإخوانهم في العلم والعمل .

وكذلك نوصيهم أن يكفُّوا عمَّا يضرُّهم من المخالفات والمعاصي والأخلاق السيئة، ويكفُّوا ألسنتهم وأعينهم وآذانهم ويحفظوا جوارحهم عما يُنْتَقَدُ عليهم من المنكرات أو مما تنكره الطباع والفطر ، فإن العالم قدوة ، ويعمل الناس بأفعاله أكثر مما يعملون بأقواله ، فإذا كانوا كذلك وفقهم الله تبارك وتعالى.

اللهم ارزقنا علماً نافعاً ينفعنا في ديننا وفي عقائدنا وفي أعمالنا .

اللهم ارزقنا علماً نافعاً بكتابك وبسنة نبيك ﷺ وبآثار سلفنا الصالح .

اللهم اجعلنا ممن يقتدون بهم ويسيرون على نهج رسول الله ﷺ وعلى نهج الصالحين من هذه الأمة ، وارزقنا التمسك بالسنة والاجتهاد في العمل بها وتطبيقها ، ونعوذ بك اللهم من علم لا ينفع ومن عمل لا يرفع، يا رب العالمين . والله أعلم .

وصلى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

فهرس عقيدة أهل السنة والجماعة